

مشاهدات يمني في اسطنبول أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني

في ضوء رحلة أعيان اليمن لمحمد غمضان 1325هـ/1907م

Yemeni views in Istanbul at the end of the reign of Sultan Abdul Hamid II
In light of the journey of Yemen's notables by Muhammad Ghamdan
1325AH/1907AD

د طلال حمود عبده بن عبده المخلافي*

أستاذ تاريخ الدولة العثمانية واليمن الحديث المشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تعز، اليمن.

تاريخ نشر المقال: 30 / 12 / 2022

تاريخ إرسال المقال: 15 / 04 / 2022

الملخص:

شهدت العلاقات بين اليمن والدولة العثمانية خلال عهد العثمانيين الثاني في اليمن وتحديدًا إبان مدة حكم الإمام يحيى والسلطان عبد الحميد الثاني نوعاً من التقارب السياسي، الذي ظهر بجلاء عبر تبادل المراسلات الثنائية والوفود والمبعوثين بغرض إنجاز مهام محددة كلما اقتضت الضرورة، وهو ما ينطبق على وفد أعيان اليمن الذي توجه إلى اسطنبول خلال سنة 1325هـ/1907م، بعد استكمال الترتيبات اللازمة التي انفرد أحد أعضاء الوفد (غمضان) بتدوين أحداثها، وتسجيل مشاهداته خلال تلك الرحلة. وتتمحور إشكالية البحث حول اللحظة المهمة في تاريخ العلاقات اليمنية العثمانية التي كانت تتلمس طريقها لبناء الثقة بين الجانبين، بوسائل سلمية بعيداً عن أدوات الصراع العسكري، والقيمة التاريخية لمعطيات الرحلة التي قدمت صورة واقعية عن العاصمة العثمانية مطلع القرن العشرين، من قبل شاهد عيان عاصر الأحداث ودونها بطريقة أبرزته كمؤرخ واثنوغرافي في آن، بينما لم ينل حظه من البحث والدراسة. ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على تلك الرحلة والمشاهدات عن اسطنبول عبر محورين يتناول الأول الرحلة وبيوغرافية صاحبها، ويناقش الثاني المشاهدات ومجالاتها، وخلص البحث إلى تحلي غمضان بتكوين متميز مكنه من الانفراد بتدوين مشاهداته - كأول يمني في التاريخ الحديث - عن اسطنبول بصورة تعكس انبهاره بفضاء ثقافي آخر متقدم مقارنة بموطنه وإن كان ضمن مجال ديني موحد، ناهيك عن تتبعه مجمل مجالات الحياة في اسطنبول آنذاك السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.

الكلمات المفتاحية: مشاهدات، رحلة أعيان اليمن لغمضان، اسطنبول، أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، العلاقات اليمنية العثمانية.

Abstract :

Relations between Yemen and the Ottoman Empire witnessed during the reign of the second Ottomans in Yemen, specifically during the reign of Imam Yahya and the Sultan Abdul Hamid II was a kind of political rapprochement, which was evident in the exchange of bilateral correspondences, delegations and envoys, with the aim of accomplishing missions whenever necessary, which applies to the delegation of Yemeni notables who headed to Istanbul during the year 1325 AH / 1907 AD, after completion of the necessary arrangements, which one of the members of the delegation, Ghamdan, was alone in writing down its events, and recording his observations during that trip. The research problem revolves around the important moment in the history of Yemeni-Ottoman relations, which was groping

المؤلف المرسل: الإيميل: د طلال حمود عبده بن عبده المخلافي، dr.talal.hamoud@gmail.com

its way to build trust between the two sides. By peaceful means, away from the tools of military conflict and the historical value of the data of the trip, which provided a realistic picture of the Ottoman capital at the beginning of the twentieth century, by an eyewitness who witnessed the events and recorded them in a way that highlighted him as a historian and ethnographer at the same time. While he didn't get lucky research and study. The research aims to shed light on that trip and the views of Istanbul through two axes, the first deals with the trip and the biography of its owner, and the second discusses the observations and their fields, and the research concluded that Ghamdan had a distinct composition that enabled him to write his views. As the first Yemeni in history to talk about Istanbul in a way that reflects his fascination with another advanced cultural space compared to his homeland, although - Within a unified religious field, not to mention it followed all areas of life in Istanbul at the time, political, economic, social and military.

Key words:

Views, the journey of Yemen's notables to Ghadaman, Istanbul, the end of the reign of Sultan Abdul Hamid II, Yemeni-Ottoman relations.

مقدمة:

يعد السفر والتنقل بصفة عامة أحد المصادر الأساسية للاطلاع على المحيط القريب والبعيد في المجتمعات ما قبل الحديثة؛ إذ يتعرض الرحالة بعيداً عن موطنه لشتى أصناف التجارب والمغامرات، يبنى من خلالها معرفة بغيره وتميزاً لذاته، ولذا فلا غرو أن تكون نصوص الرحلة منجماً يكاد لا ينضب من حيث المعطيات المتنوعة التي لا مندوحة لمن توخى معرفة مجريات المجتمعات معرفة شاملة من النهل من معين النصوص المكتوبة حول السفر¹.

كما أن كتب الرحلة تتسم بخصوصية معطياتها التي تميزها عن غيرها شكلاً ومضموناً؛ كونها أداة للاحتكاك والتواصل بين الثقافات المختلفة من جهة، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جهة أخرى²، ووسيلة من وسائل المعرفة بالآخر ومعبراً لنقل أفكاره وتقنياته، بحيث شكلت الرحلة في جوهرها رواية تفاعل ثقافي بين الذات

¹ عبد الرحمن المودن، عبد الرحيم بنحادة، "تقديم"، ضمن: السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة، تنسيق: عبد الرحمن المودن - عبد الرحيم بنحادة، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003م، ص 11-4.

² مليكة الزاهدي، "صورة الدولة العثمانية في رحلتي ابن عثمان والزباني لعام 1200هـ/1789م"، ضمن: العثمانيون والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحمن المودن - عبد الرحيم بنحادة، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003م، ص 159-173.

والآخر³، ونافذة أكثر أهمية في التعرف على بلدان وأقطار متعددة، كونها اتخذت من التجربة والمشاهدة المباشرة أساساً لتدوينها ووصفها، وأصبح الرحالة اثنوغرافي أصيل يقدم معطيات مهمة تفتح الآفاق المعرفية عن جزء مهم مجهول من حياة دولة وشعب ما⁴.

وفي هذا الإطار، تأتي رحلة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول سنة 1325هـ/1907م، والتي تكتسب أهميتها من أهمية المرحلة التاريخية الحاسمة في علاقات اليمن والدولة العثمانية إبان عهدي الإمام يحيى⁵ والسلطان عبد الحميد الثاني⁶ على وجه الخصوص، وما بذل فيها من محاولات عدة بغية الحرص على التأطير الإيجابي للعلاقات السياسية المتوترة، عبر وسيلة جديدة للانفتاح على الآخر وإعادة اكتشافه؛ في خطوة للتقارب ومد جسور التواصل وبناء الثقة بأدوات سلمية تخفف من حدة الصراع العسكري الطاعني على علاقات البلدين آنذاك، ناهيك عن ما تحتويه الرحلة من وثائق تاريخية مهمة للباحثين والمؤرخين المهتمين بتلك الحقبة وما تكتنزه مشاهدات غمضان من معطيات مهمة متنوعة كتبت بالمعاينة المباشرة للمكان المحدد بتواريخ دقيقة، وجسدت لديه وعياً بالمكان واتصالاً بالزمان⁷.

³ محمد بن الطيب، "صورة الآخر في أدب الرحلة قديماً"، ضمن: صورة الآخر في الثقافة العربية الإسلامية، إشراف توفيق بن عامر، ط1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2007م، ص 157-169.

⁴ عبد القادر ربوح، "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن 11هـ/17 من رحلة يحيى الشاوي الملياني ت 1096هـ/1685م أنموذجاً"، مجلة البحوث والدراسات، مجلد 15، العدد 1، 2018م، ص 297-324، جامعة الجلفة، الجزائر.

⁵ الإمام يحيى: هو المتوكل على الله يحيى بن محمد بن يحيى، ولد بصنعاء 1286هـ/1869م، تولى منصب الإمامة في ربيع الأول 1322هـ/ يونيو 1904م إثر وفاة والده المنصور وضرب على سكوته (عصمتي بالله، المتوكل على الله)، خاض حروباً عدة مع العثمانيين وتولى مقاليد السلطة في شمال اليمن بعد خروج العثمانيين منها نتيجة لهزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، توفي سنة 1367هـ/1948م وخلفه ابنه أحمد. انظر: عبد الكريم أحمد مطهر، سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، ج1، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، دار البشير، عُمان، 1998م، ص 9-83؛ محمد بن أحمد يحيى زبارة، تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن حتى العصر الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، د.ت، ص 169-175.

⁶ عبد الحميد الثاني: هو الابن الخامس للسلطان عبد المجيد وهو السلطان العثماني الرابع والثلاثون، ولد في شعبان 1258هـ/سبتمبر 1842م، نودي عليه لاعتلاء السلطة عقب الإطاحة بأخيه مراد الخامس بسبب جنونه في شعبان 1293هـ/أغسطس 1876م، تمتع بصرامة قوية والميل للمركزية الشديدة، أوقف العمل بالإصلاحات التي كان قد شرع في تطبيقها وصرف النظر عن التحديث بالطريقة التي فكر فيها مخططوا الإصلاح في عهد أبيه وأخويه، كانت الدولة العثمانية حين تسلمه عرشها تعاني من مشاكل داخلية وتكالب الدول الخارجية قبيل اندلاع الحرب الكونية الأولى، ورغم محاولته الصمود في وجه المؤامرات والنهوض بالدولة العثمانية فقد انتهى الأمر بتحريض من يهود الدونمة ومساعدة الماسونية والصهيونية العالمية بخلعته ونفيه إلى سلانيك - مركز محفل أنشطة يهود الدونمة ضد السلطان عبد الحميد الثاني- في ربيع الآخر 1327هـ/أبريل 1909م، وبعد قرابة ثلاث سنوات نقل إلى اسطنبول وبقي هناك حتى توفي في ربيع الآخر 1336هـ/فبراير 1918م، وقد دون السلطان تفاصيل ذلك في مذكراته انظر: محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، ط3، دار القلم، دمشق، 1993م، ص 17-266؛ أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، ط1، دار النيل، القاهرة، 2008م، ص 61-292؛ بنحادة، العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1991م، ص 4-35.

⁷ لطفي ديش، الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية، قراءة في نصوص الجغرافيين والمساكين العرب إلى القرن الخامس الهجري، ط1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جامعة تونس، 2011م، ص 363-366.

وتأتي إشكالية موضوع البحث، من اللحظة المهمة في تاريخ العلاقات اليمنية العثمانية التي كانت تحاول بناء الثقة بين الجانبين بأدوات جديدةا بعدها عن الصراع العسكري، وكذا من القيمة التاريخية لمعطيات الرحلة التي قدمت صورة واقعية عن عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول مطلع القرن العشرين، من قبل شاهد عيان عاصر الأحداث ودونها بطريقة أبرزته كمؤرخ واثنوغرافي في الوقت نفسه، بينما لم ينل حظه من البحث والدراسة. فماذا عن شخصية غرمضان؟ وما غرض الرحلة ومسارها؟ وفي أي سياق تاريخي تمت؟ وماهي إسهامات غرمضان في التعريف بإسطنبول ونقل صورة حية عنها بموجب مشاهداته لها سنة 1325هـ/1907م.

واستناداً إلى المعطيات المتوفرة بين أيدينا عن موضوع البحث، وباستخدام منهجية التحليل الوصفي، قمنا بمقاربة الموضوع عبر محورين أساسيين، الأول تطرقنا فيه إلى الرحلة بما تشتمله من بيوغرافية شخصية لكاتبها وتكوينه العلمي والمهني، علاوة على غرض ومسار الرحلة وسياقها التاريخي على مستوى اليمن والدولة العثمانية وارتباطاتها بالمجال الدولي في خضم تداعيات إرهابات الحرب الكونية الأولى، أما الثاني فقد خصصناه للمشاهدات التي دونها غرمضان عن اسطنبول في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.

1- الرحلة:

سنترك في هذا المحور إلى ثلاثة موضوعات مهمة تغطي مختلف جوانب الرحلة، من خلال معطيات تتعلق بشخصية صاحب الرحلة وغرضها ومسارها وسياقها التاريخي، على النحو الآتي:

1-1 غرمضان، بيوغرافيا شخصية

تعتبر المعطيات البيوغرافية المتعلقة بشخصية غرمضان شحيحة جداً لا تغطي مراحل حياته الشخصية، سيما بانتماؤها الاجتماعية والثقافية والسياسية على وجه الخصوص، وحتى رحلته موضوع البحث لا تقدم معطيات حول شخصيته، وجل ما نملكه من معطيات مقتضبة في هذا الصدد دونها المؤرخ زبارة الذي كان معاصراً لغرمضان وتداولها اللاحقون من بعده، كما سيأتي.

هو محمد بن حسين بن علي الملقب بغرمضان، ولد في جمادي الأولى 1277هـ/نوفمبر 1860م م بمدينة صنعاء على الأرجح⁸، نشأ في أسرة علمية أسهمت في حصوله على تكوين علمي ومهني متميز؛ فوالده برع في

⁸ ما يدعم ذلك نشأة والده ووفاته في صنعاء وكذا مولد ابنه محمد وحفيده عبد الله فيها. انظر: محمد بن أحمد يحيى زبارة، نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، تحقيق عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، ج 1، ط 1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2010م، ص 296، 424؛ ج 2، ص 626.

الفقه ولازم تدريسه بمسجد ابن الحسين بصنعاء ما أهله لتولي القضاء بناحية همدان⁹ واكتساب عضوية محكمة الاستئناف¹⁰، ويبدو أن هذا التكوين العلمي والمهني قد انعكس في المسيرة البيوغرافية لابنه محمد غمضان، الذي تتلمذ على يد والده في البداية، ولاحقاً على يد عدد من العلماء بإشراف والده¹¹، ومن ثم "حقق الفقه وكان عالماً"، وهذا التكوين العلمي وتحديد الفقه أسهم في تكوين غمضان على المستوى المهني وهياً له التدرج بسلم المناصب إبان الحكم العثماني الثاني في اليمن¹².

فقد عين غمضان ناظراً للأوقاف¹³ من قبل العثمانيين واستمر في منصبه ذلك حتى سنة 1325هـ/1907م حين توجه مع وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول¹⁴، وبالتالي اكتسب خبرةً ومراساً في الشأن الإداري وما يتصل به من ارتباطات سياسية ودبلوماسية فضلاً عن الأدبية والتاريخية، الأمر الذي أسهم في تصدره تشكيلة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول، ما يعني تألقه قبل تنفيذه للمهمة الأولى خارج اليمن، وأضفى على معطيات رحلته بعداً مهماً، وأهله لتقلد مهام ووظائف أخرى في بلده بعد عودته من اسطنبول، إذ عينه الإمام يحيى حاكماً لقضاء¹⁵ دمار¹⁶

⁹ همدان: بالشمال الغربي من صنعاء، يطلق حالياً على المنطقة المجاورة لصنعاء، وقديماً كان يشمل ما بين صنعاء وصعدة إلى نجران ومن تهامة إلى دهم ومنها حاشد وبكيل، وحمدان من أشهر قبائل اليمن. انظر: حسين بن علي الونسي، **اليمن الكبرى**، ج 1، ط 2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1991م، ص 92، 93؛ محمد بن أحمد الحجري، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، ج 1، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع، ط 2، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1996م، ص 752-759.

¹⁰ زيارة، نزهة... م.س، ج 1، ص 296.

¹¹ أبرزهم رئيس العلماء آنذاك أحمد بن محمد الكبسي وآخرون. انظر: زيارة، نزهة... م.س، ج 2، ص 562.

¹² بدأت بواكير هذا العهد في اليمن سنة 1264هـ/1848م عبر السيطرة المباشرة على تهامة فقط والسيادة الاسمية على المناطق الجبلية الشمالية من اليمن واستمرت كذلك حتى أخضعها العثمانيون لسيطرتهم المباشرة سنة 1289هـ/1872م إثر دخولهم صنعاء. انظر: طلال حمود عبده المخلافي، "الملاحم العامة للمناطق الجبلية الشمالية من اليمن خلال عهدي الحكم العثماني 923-1336هـ/1517-1918م"، **مجلة دراسات تاريخية**، مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، عدن، العدد السادس، يونيو 2021م، ص 221-277.

¹³ **ناظر الوقف**: الناظر هو من ينظر في الأموال ويتفقد تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويدققها، فيمضي ما يمضي ويرد الباقي، وناظر الأوقاف من ينظر بشؤون وأموال الأوقاف. انظر: محمد أحمد دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط 1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1990م، ص 150؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص 49.

¹⁴ لم يتمكن من معرفة تاريخ تعيينه في هذا المنصب. انظر: زيارة، نزهة... م.س، ج 2، ص 562.

¹⁵ **قضاء**: مفرد قضاوات، من التقسيمات الإدارية المحلية في اليمن خلال العهد العثماني، حيث كانت الولاية تنقسم إلى سناجق- قضاوات - نواحي - عزل - وقرى. انظر: عبد الكريم العزيز، **التشكيلات المركزية العثمانية والإدارة المحلية في اليمن 1850-1918م**، ط 1، مطابع وزونكوغراف الصباحي، صنعاء، 2003م، ص 139-156.

¹⁶ **دمار**: مدينة كبيرة جنوب صنعاء بمسافة 95 كم، سميت باسم دمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان. انظر: إبراهيم أحمد المقحفي، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، ج 1، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2002م، ص 649.

ثم انتقلت وظيفته إلى ريمة¹⁷ سنة 1337هـ/1917م¹⁸، وفي سنة 1343هـ/1924م عين حاكماً للواء الحديد¹⁹

ثم رئيساً لحكومة سنحان²⁰، وكانت وفاته في ذي القعدة سنة 1358هـ/ديسمبر 1939م²¹.

1-2 الرحلة، الغرض والمسار

تتنوع أغراض وأهداف الرحلات بين ما هو علمي، وديني، وسياسي، وسياحي، وغيره، وتشكل بعضها مزيجاً من هذه الأغراض²²، وفي هذا الصدد، فقد كان الغرض الأساس لرحلة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول سنة 1325هـ/1907م سياسياً بامتياز²³؛ كونها تمت بطلب من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وتلبيةً للدعوة التي أطلقها السلطان عبر مرسومه الذي حمّله الوفد العثماني المكون من شخصيات عثمانية كبيرة غداة وصوله صنعاء في 19 ربيع الأول 1325هـ/2 مايو 1907م²⁴ والتقاءه بالوالي العثماني أحمد فيضي²⁵، في إطار التوجه

¹⁷ ريمة: منطقة جبلية واسعة متوسط ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالي 2800م، تقع بالجنوب الغربي من صنعاء وتشرف من جهة الشرق على بيت الفقيه من تهامة، وتعد محافظة مستقلة حالياً. انظر: المقحفني، م.س، ج 1، ص 723، 724؛ الحجري، م.س، ج 1، ص 377، 378.

¹⁸ زيارة، نزهة...، م.س، ج 2، ص 626.

¹⁹ الحديد: اسم للمحافظة والمدينة والميناء، تقع بالجهة الغربية من اليمن على ساحل البحر الأحمر. للمزيد انظر: الونسي، م.س، ص 104-116.

²⁰ سنحان: قبيلة ومديرية في الجنوب الشرقي من صنعاء، ويرجح أن الحكومة هنا كناية عن مقر الحاكم. انظر: المقحفني، م.س، ج 1، ص 817، 819.

²¹ زيارة، نزهة...، ج 2، م.س، ص 562.

²² الزاهدي، "صورة..."، ضمن العثمانيون والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحمن المودن - عبد الرحيم بنحادة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 1، 2003م، ص 159-173.

²³ عبد الله محمد الحبشي، الرحالة اليمنيون، رحلاتهم شرقاً وغرباً، ط 1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1989م، ص 236.

²⁴ كان هذا الوفد برئاسة العلامة محمود أسعد أفندي الذي تولى منصب شيخ الإسلام سنة 1329هـ/1911م، وعضوية الفريق ثابت باشا والفريق هادي باشا والأمير الای أحمد بن محد البخاني ياور السلطان عبد الحميد والقائم مقام عثمان أفندي والقول آغاسي فيضي أفندي والكاتب طيار أفندي. انظر: سعد محمد الشرقي، عشر سنوات من سيرة الإمام يحيى، تقييد حوادث إنشاء وتجديد الجهاد الثاني، دراسة وتحقيق محمد عيس صالحية، ج 1، ط 1، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء، 2004م، ص 84.

²⁵ أحمد فيضي: أحد القادة العسكريين المشهورين بالشدة والبأس الذين عولت عليهم الدولة العثمانية في إخماد التمردات ضد وجودها في اليمن في العهد الثاني، عين والياً لليمن ثلاث مرات، الأولى من (1302-1304هـ-1884-1887م)، حيث حل محله حسن تحسين باشا الذي وصف بحسن معاملته لليمنيين، والثانية من (1309-1315هـ/1891-1898م) حين خلفه حسين حلمي باشا صاحب السياسة الإصلاحية في اليمن، والثالثة من (1323-1326هـ/1905-1908م) خلفه فيها حسن تحسين باشا الذي استطاع تهدئة الأمور وإصلاح الأوضاع سيما مع اعترافه بوضع خاص للإمام داخل ولاية اليمن ومهد لعقد صلح دعان معه، ويبدو أن النتائج العكسية لشدة فيضي مع الأهالي الذين ثاروا في وجهه كانت تدفع الدولة العثمانية إلى عزله وتعيين خلفاً له لتهدئة الثورة وبالذات إبان مراحل التفاوض مع اليمنيين، لكنها كانت تضطر لأن تعيده قائداً أو والياً على اليمن حين تستأنف الثورة ضدها. للمزيد انظر: حسين العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1939م، ص 79-86؛ سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى 1904-1948م، ط 4، 1993 دار الأمين، القاهرة، ص 35، 36، 75-85؛ أمة الغفور عبد الرحمن الأمير، "الوالي حسين حلمي باشا وسياسته الإصلاحية في اليمن (1316-1319-1898-1901م)، ضمن: بحوث الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني، صنعاء 16-17 ديسمبر 2009م، ط 1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا)، استانبول، 2011، ص 43-73.

الجديد للسلطان العثماني في التعامل مع ولاية اليمن بالطرق السلمية ومحاولة خفض التوتر العسكري الذي تصاعد منذ تولي الإمام يحيى مقاليد الأمور بعد وفاة والده الإمام المنصور²⁶.

فقد تضمن المرسوم - الذي يعد أحد أبرز الوثائق السياسية والتاريخية التي احتوتها الرحلة- دعوة وفد من كبار رجال اليمن من العلماء²⁷ والأعيان الذين يحضون بثقة الأهالي ويعبرون عن همومهم وتطلعاتهم لمقابلة السلطان عبد الحميد في اسطنبول، والتباحث معه في السبل الكفيلة بإصلاح أوضاع ولاية اليمن وإزالة أسباب التوتر فيها، كما تضمن ما يمكن اعتباره رسائل تطمين لكسب ثقة اليمنيين وإظهار النهج الجديد للسلطان وحسن نيته، أبرزها التوجيه بالعفو عن السجناء اليمنيين في سجون العثمانيين باليمن أو الفارين على ذمة وقوفهم ضد العثمانيين، وإعفاء الأهالي من الديون المتبقية عليهم من السنوات السابقة لمدة عامين وتحديدًا حتى عام 1323هـ/1905م؛ تقديرًا من السلطان للظروف الاقتصادية الصعبة للأهالي في اليمن آنذاك جراء الصراع السياسي العسكري مع العثمانيين وسوء الأحوال الطبيعية²⁸، التي اتضحت في العجز الكبير الذي سجلته ميزانية ولاية اليمن لسنة 1325هـ/1907م بحسب الأرقام الواردة في الوثائق العثمانية²⁹.

²⁶ الإمام المنصور: محمد بن يحيى بن محمد حميد الدين، ينتهي نسبه إلى الإمام القاسم بن محمد مؤسس الأسرة القاسمية في اليمن، ولد في صنعاء سنة 1355هـ/1936م، لقب بالمنصور بالله بعد أن دعا لنفسه بالإمامة في صعدة سنة 1307هـ/1890م، انخرط بوضوح في العمل السياسي والعسكري ضد العثمانيين وتمكن من تأليب عدد من القبائل عليهم وخوض عمليات عسكرية مضادة لهم ومحاصرتهم في بعض المدن وفي مقدمتها صنعاء تارة والانزهاض أمام العثمانيين في مرات أخرى، بالتزامن مع عدد من محاولات التفاوض (غير المباشر في جملها) عبر استقبال الوفود والمبعوثين وتبادل المراسلات الهادفة إلى تهدئة الأوضاع وإبرام الصلح بين الجانبين، واستمر ذلك دون جدوى حتى وفاته سنة 1322هـ/ يونيو 1904م. للمزيد انظر: علي بن عبد الله الإرياني، الموقف اليمني من الحكم العثماني الثاني، الدر المنثور في سيرة الإمام المنصور، تحقيق ودراسة أمة الملك الثور، ط1، دار الفكر، دمشق، 2008م، ص 35-60، ص 183-409؛ عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، ط2، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1984م، ص 219-229.

²⁷ حرص السلطان عبد الحميد الثاني على أن يتضمن وفد أعيان اليمن بعض العلماء الثقات، ولذا كلف أحد أكبر العلماء العثمانيين برئاسة وفد إلى صنعاء للإشراف على تشكيل وفد أعيان اليمن. انظر: رياض محمد أحمد الصفواني، "موقف العلماء اليمنيين من الحكم العثماني الثاني في ولاية اليمن 1289-1337هـ/1872-1918م، مجلة دراسات تاريخية، مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، عدن، العدد السادس، يونيو 2021م، ص 147-183.

²⁸ للمزيد حول المرسوم انظر: محمد بن حسين غرمضان، رحلة أعيان اليمن إلى استنبول 1907، تحقيق عبد الله محمد الحبشي وحسن محمد ذياب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015م، ص 19-21.

²⁹ ورد في التقرير المرفوع من الهيئة التفتيشية في اليمن عن مقدار مصروفات وإيرادات ولاية اليمن لسنة 1325هـ/1907م أن أجمالي المصروفات 542.003 ليرة وإجمالي الإيرادات 340.000 ليرة ومقدار العجز 202.003 ليرة، وتجري تغطيته من الأموال المرسلة من دار السعادة. انظر: تقرير الهيئة التفتيشية عن مقدار مصروفات وإيرادات ولاية اليمن (5 رمضان 1325هـ/12 نوفمبر 1907م)، الأرشيف العثماني إسطنبول YPRK.NO15/46 (نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: Osmanlı Arşiv Belgelerinde Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني (اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008م، ص 294-303.

وكان الوفد السلطاني قد أرسل مبعوثاً من قبله برسالة إلى الإمام يحيى لتوضيح المهمة التي قدم من أجلها إلى اليمن³⁰، وفي الوقت نفسه شرع في ترتيبات تشكيل الوفد اليمني بمعزل عن الإمام³¹، حيث تكون الوفد من شخصيات يمنية مثلت الشرائح الاجتماعية من مختلف مناطق ولاية اليمن³²، جلهم من الشخصيات البارزة التي تحظى باحترام الناس، وكذا تلك العاملة مع العثمانيين أو المقربة منهم، مع خلو الوفد من أية شخصية معروفة بمعارضتها للعثمانيين، أو تمثل الإمام يحيى³³، ويتضح ذلك جلياً من خلال إحدى الوثائق العثمانية المهمة التي تمثل عرضاً من الصدر الأعظم³⁴ للسلطان بخصوص وفد أعيان اليمن الذين سوف يصلون إلى اسطنبول بموجب

³⁰ تم تكليف الحاج عبد الرحمن بن سعد الزبيدي بحمل الرسالة التوضيحية لمهمة الوفد العثماني. انظر: فؤاد عبد الوهاب الشامي، **علاقة العثمانيين بالإمام يحيى في ولاية اليمن 1322-1337هـ/1904-1918م**، ط 1، مركز الرائد للدراسات والبحوث، صنعاء، 2014م، ص 206.

³¹ هذا ما يشير إلى دور الوالي أحمد فيضي باشا والوفد السلطاني في اختيار تشكيلة الوفد، وإلى أهداف السلطان العثماني المتمثلة بمعرفة حقيقة دعوة الإمام يحيى والتأكد من أهدافه الخفية - التي بلغت السلطان - في الوصول إلى منصب الخلافة، وكذا معرفة حجم التأييد الذي يحظى به لدى أهالي اليمن، ناهيك عن محاولة كسب تأييد أعضاء الوفد وتحجيد الإمام يحيى عن تصدر المشهد في ولاية اليمن، وإيجاد شخصية أو قوة محلية بديلة يمكن أن يتم التفاهم معها في حل مشاكل الولاية. انظر: الشامي، م.س، ص 206.

³² بدأ الوفد السلطاني إجراءات اختيار الوفد اليمني من مركز الولاية ولواء صنعاء، ثم امتد إلى قضاوات عمران وحجة وحراز وذمار ورداع وإب، ولواء تعز ولواء الحديدة، وكان ضمن المنتخبين من صنعاء محمد بن حسين غمضان ناظر الأوقاف حينها. للمزيد انظر: غمضان، م.س، ص 21-31؛ مطهر، م.س، ج 2، ص 248، 249.

³³ تم تجاهل الإمام عند تشكيل الوفد ولم يطلب منه إرسال من يمثله فيه، وإن كان ذلك لا يعني أن الإمام كان رافضاً لتشكيلة الوفد سيما وأن بعض شخصيات الوفد تمثل - كما نعتقد - نوعاً من التوافق بين الجانبين؛ وما يدعم ذلك عدم عثورنا على ما يحيل على اعتراض الإمام على تشكيلة الوفد؛ سيما إذا ما علمنا أن جل الشخصيات تنتمي إلى الأرومة (الهاشمية) التي تتكون منها الطبقة الاجتماعية التي ينتسب لها الإمام نفسه والتي تدعي أحقيتها بحكم اليمن دون غيرها من الطبقات الاجتماعية، فضلاً عن تعيين الإمام لبعض أعضاء الوفد - بعد عودتهم من الرحلة وتسلمه مهام السلطة إثر مغادرة العثمانيين لليمن - في مناصب مهمة، ومنهم كاتب الرحلة غمضان - كما أسلفنا - والسيد محمد بن يحيى المنصور عضو مجلس إدارة الولاية من قضاء صنعاء الذي عينه الإمام سنة 1330هـ/1911م عضواً في محكمة الاستئناف الشرعية بصنعاء، بجانب العلاقات الشخصية والصلات العلمية التي تربط الإمام ببعض أعضاء الوفد أمثال العلامة علي بن حسين بن حسن المغربي نائب قضاء كوكبان، الذي أجاز الإمام يحيى إجازة عامة في رواية كتاب الأُمم لإيقاظ الهمم لمؤلفه إبراهيم الكردي وفي إتحاف الأكابر بأسانيد الدفاتر، والسيد عبد الله بن علي عبد القادر شرف الدين من قضاء صنعاء الذي سبق وأن اشترك في السعي للصلح بين العثمانيين والإمام سنة 1322هـ/1904م، والشريف حمود بن غالب من رؤساء الزيدية من قضاء صنعاء والذي كان في عهد الإمام عاملاً على كسمة في جبل ريمة سنة 1338هـ/1919م، وكذلك الشيخ حزام الصعر ممثل قضاء عمران في الوفد والذي حاز على الرتبة الرابعة من النيشان المجيدي وعلى ميدالية اليمن نظير خدماته للدولة العثمانية، والذي انضم للعمل مع الإمام يحيى بعد خروج العثمانيين من اليمن، والقاضي عبد الرحمن الحداد من قضاء إب الذي قدم خدماته للعثمانيين إبان وجودهم في اليمن وتم تعيينه رئيساً للمجاهدين أثناء الحرب العالمية الأولى حين حرص على جمع المحاربين والمعونات لسعيد باشا أثناء حروبه ضد البريطانيين في لحج وحاز على الرتبة الرابعة من الوسام العثماني لقاء حسن صداقته وخدماته للدولة العثمانية، وبعد مغادرة العثمانيين عينه الإمام رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية في لواء تعز. انظر: زيارة، نزهة...، ج 2، ص 386، 562، 591، 626؛ غمضان، م.س، ص 21-32؛ مطهر، م.س، ج 1، ص 112، 25؛ ج 2، ص 161، 324.

³⁴ **الصدر الأعظم**: هو الشخص الذي حاز منصب رئيس الوزراء في الدولة العثمانية، كان وكيلاً مطلقاً للسلطان، ولديه صلاحيات كافة الأمور في الدولة. انظر: سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ط 1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص 143، 144.

دعوة السلطان مع كشف مرفق بأسماء أعضاء الوفد والمساعدين والخدم، وبيان الوضع الاجتماعي لكل عضو ووظيفته وطبيعة علاقته بالدولة العثمانية³⁵.

وبعد تقديم أعضاء الوفد العثماني التطمينات السلطانية للوفد اليمني سواء حين بقائهم في اسطنبول أو بعد عودتهم لبلادهم، خاصة فيما يتعلق بالمستقبل المهني للمنخرطين منهم في سلم الإدارة العثمانية في اليمن³⁶، أو تأمين المتطلبات المادية لأعضاء الوفد وأسرهم في اليمن، وطوال الطريق الموصل من مختلف مناطقهم إلى العاصمة العثمانية، وكذا مدة إقامتهم في هذه الأخيرة³⁷، انطلقت الرحلة صوب اسطنبول متخذة مساراً بحرياً محطته الأولى ميناء مدينة الحديدية، وقد حرص غرمضان على التأطير المكاني والزمني لمعالم ذلك المسار بدقة، فذكر أن أول ركوبهم البحر كان بواسطة السنبوق³⁸ يوم الثلاثاء 17 ربيع الآخر 1325 هـ/30 مايو 1907 م وانتظروا

³⁵ بلغ عدد أعضاء وفد أعيان اليمن إجمالاً بحسب الوثيقة 109 أفراد، منهم 48 قوام الوفد، يرافقهم 10 أفراد مساعدين و52 فرداً خدماً، وهو ما يتسق مع الأسماء التي أوردها غرمضان في رحلته عن ممثلي الوفد من كل منطقة، ويقترب من رواية عائشة بنت السلطان عبد الحميد - عند مشاهدتها استقبال والدها وفد أعيان اليمن من نوافذ الحريم - بأنهم "كانوا ما يقرب من مائة رجل". للتفاصيل انظر: دعوة عدد من سادات وعلماء ومشائخ وأعيان اليمن لزيارة مدينة اسطنبول (6 جمادي الأولى 1325 هـ/17 يونيو 1907 م)، الأرشيف العثماني إسطنبول YPRK.NO.26/88 (نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: Osmanlı Arşiv Belgelerinde Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني (اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008 م، ص 374-383؛ غرمضان، م.س، ص 21-32؛ عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد (مذكرات)، ترجمة صالح سعادوي، ط1، دار البشير، عمان، 1991 م، ص 81.

³⁶ ورد في المرسوم السلطاني أن "النواب الذين سيعززون برفاقتنا إلى دار السعادة سيكونون ضيوف مولانا وولي نعمتنا بلا امتنان، وسيكون تلطيفهم وإعزازهم وعند ختام المذاكرة يعودون محللتهم مرفهين مطمئنين، وسينالون آثار التوجيه والاعتماد من مولانا الخليفة الأعظم بالاستفادة من خدماتهم حتى تطبيق التدابير والمقررات التي ستتخذ". انظر: غرمضان، م.س، ص 21.

³⁷ استأذن الصدر الأعظم في عرضه للسلطان بزيادة مبلغ المصاريف المقررة لوفد أعيان اليمن إلى 1500 ليرة. انظر: دعوة عدد من سادات وعلماء ومشائخ وأعيان اليمن لزيارة مدينة اسطنبول (6 جمادي الأولى 1325 هـ/17 يونيو 1907 م)، الأرشيف العثماني إسطنبول YPRK.NO.26/88 (نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: Osmanlı Arşiv Belgelerinde Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني (اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008 م، ص 374-383. وقد أشار غرمضان إلى المتطلبات المادية بقوله: "ومن بعد الانتخاب لهؤلاء أعطينا إكرامية كفاية لبيوتنا ومصرفنا إلى الحديدية، وأما من الحديدية إلى دار السعادة فالكفاية التامة من حضرة السلطان حفظه الله". انظر: غرمضان، م.س، ص 21، 24.

³⁸ السنبوق: أو الصنبوق، قارب صغير من مراكب البحر الأحمر وخليج عدن: انظر: حسن صالح شهاب، المراكب العربية: تاريخها وأنواعها، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1987 م، ص 76.

فيه عدة ساعات لحين وصول البابور³⁹ المسمى أزمير⁴⁰، والذي أبحر نحو السويس⁴¹، وبور سعيد⁴²، وبحر سفيد⁴³

وشنق قلعة⁴⁴، وصولاً إلى دار السعادة⁴⁵ يوم الخميس 2 جمادى الأولى 1325 هـ/13 يونيو 1907 م⁴⁶.

وبالرغم من عدم ترك غمضان إشارات عن التاريخ الزمني الذي شرع فيه تدوين مذكراته عن هذه الرحلة ولا المدة التي استغرقها ذلك التدوين⁴⁷، وهو الأمر نفسه عند ابنه محمد الذي كتب ورقة تعريفية بمخطوط (رحلة) أبيه⁴⁸، فإنها قد احتوت على معطيات ووثائق مهمة تحيل على اهتمامه بعنصري الزمان والمكان في تدوين

³⁹ البابور: سفينة بحرية تسير مندفة بقوة البخار يقال لها الباخرة. انظر: لويس معلوف، المنجد في اللغة والأعلام، ط26، دار المشرق، بيروت، 1992م، ص24.

⁴⁰ أزمير: اسم مدينة جميلة وميناء في تركيا الأسيوية (الأناضول) على بحر إيجه، يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد ويعتقد أنها مسقط رأس هوميروس، فتحها السلطان مراد الثاني سنة 1424م، أصبحت ميناء للدولة العثمانية منذ سنة 1451م، تتميز بميدانها الواسع قوناق بمركز المدينة ورمزه الشهير برج الساعة المقدم هدية من السلطان عبد الحميد الثاني، احتلتها اليونان سنة 1919م ثم استعادتتها تركيا سنة 1922م إثر هزيمة اليونان في الأناضول، وصارت تركية رسمياً بموجب معاهدة لوزان، تعد ثالث أكبر مدينة في تركيا ومركزاً مهماً للسياحة والتجارة والصناعة والثقافة. انظر: س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق عصام محمد الشحادات، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002م، ص52-54؛ قوتلاي دوغان، تركيا، ترجمة فاتح توركجان؛ وجدي كديك، ط1، شركة نورول للطباعة، أنقرة، 2002م، ص43، 44.

⁴¹ السويس: مدينة وميناء مصري على خليج السويس عند مدخل قناة السويس في أقصى شمال البحر الأحمر زادت أهميتها كنقطة اتصال بين الشرق والغرب بعد فتح قناة السويس سنة 1869م. انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ط1، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص7.

⁴² بورسعيد: ذكرها غمضان بورت سعيد، ميناء ومرفأ مصري عند المدخل الشمالي لقناة السويس، أسسها الخديوي سعيد وعرفت باسمه، زادت أهميتها كمدينة وتوسعت بعد شق قناة السويس، أصبحت مركز محافظة القنال والممر الرئيسي للتجارة العالمية بين الشرق والغرب. انظر: رمزي، م. س، ج1، ص6.

⁴³ بحر سفيد: يقصد به البحر البيض المتوسط (أو بحر الروم). انظر: غمضان، م. س، ص33 (هامش 1)؛ الشرقي، م. س، ج2، ص259 (هامش 1).

⁴⁴ شنق قلعة: أو جناق قلعة سي، القلعة السلطانية: اسم لمدينة (وقلعة) في تركية الأسيوية (الأناضول) مركز لواء بيغا في ولاية خادوند كار على مضيق الدردنيل، تربط بحر مرمرة ببحر إيجه. انظر: موستراس، م. س، ص243.

⁴⁵ دار السعادة: مصطلح أطلق على قصور الملوك منذ العهد الأيوبي والمملوكي فالعثماني، ثم أطلق على العاصمة العثمانية استنبول فصارت تعرف بدار السعادة؛ لأنها كانت قصرًا لحكم العثمانيين، كما أطلق كذلك على جناح الحريم في قصر طوب كاوي باستنبول. انظر: دهمان، م. س، ص72؛ صابان، م. س، ص108؛ حلاق؛ صباغ، م. س، ص87.

⁴⁶ غمضان، م. س، ص25-33.

⁴⁷ أورد في نهاية مخطوطه عبارة "كتبه الفقير إلى الله محمد بن حسين الكبسي حفظه الله" دون أن يذكر التاريخ الزمني لذلك.

⁴⁸ ورد فيها "هذه الكراسة فيها رحلة أعيان اليمن إلى حضرة السلطان عبد الحميد إلى استانبول في شهر ربيع الأول سنة 1325 هـ وهي مختصرة بقلم منشئها والذي العلامة عز الإسلام محمد بن حسين بن علي غمضان رحمه الله ورضي عنه، وهو أحد الأعيان العازمون إلى حضرة السلطان وقد ذكروا فيها من العجائب التي رأوها ما يبهر العقول وأعظم أبهة أن السلطان عبد الحميد وحاشيته وضع من كان تحت خدمته وأعيان اليمن المذكورين كلهم قد انقضوا جميعاً ولم يبق أحد منهم في هذا التاريخ فسبحان الله الملك الباقي القهار والسلام 6 شهر ربيع الأول 1380 هـ (29 أغسطس 1960م)". انظر: أمة الملك إسماعيل الثور، "رحلة أعيان اليمن إلى استانبول"، مجلة جامعة صنعاء للعلوم الاجتماعية والإنسانية، صنعاء، العدد الثالث، 2008م، ص30، 31، 42، 43.

مشاهداته، التي يبدو أنه تتبعها خطوة بخطوة في حينها واستكمل تحريرها فور عودته صنعاء بمخطوط متوسط من 21 ورقة أسماها ابنه وثيقة أو كراسة تم تحقيقها مؤخراً⁴⁹.

1-3 السياق التاريخي للرحلة

عرفت العلاقات اليمنية العثمانية التي خضعت لثنائية الحرب والسياسة نوعاً من التحول في مسارها - خلال العقد الأول من القرن العشرين- اتسم بالميل إلى التقارب السياسي والحوار مع الآخر، ويمكننا إدراجه ضمن ما أسماه بعض المؤرخين بإرهاصات الانفتاح⁵⁰، تلك الإرهاصات التي تنبئ عن توجه جديد في السياسة الخارجية للدولتين إبان عهدي الإمام يحيى والسلطان عبد الحميد الثاني تحديداً؛ بفعل تأثير إكراهات الظرفية التاريخية التي عايشتها اليمن والدولة العثمانية عشية انطلاق الرحلة من صنعاء إلى اسطنبول، ما دفع الطرفين إلى تلمس طريق التفاوض والحوار السلمي⁵¹ كوسيلة لحل قضية اليمن عوضاً عن الصراع العسكري.

وفي هذا الصدد، فقد كانت رحلة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول تندرج ضمن إعادة ترتيب العلاقات اليمنية العثمانية، وفي إطار سلسلة من العمليات التفاوضية، عبر الوفود والمبعوثين والمراسلات التي تبادلها الطرفان بصورة مباشرة وغير مباشرة خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين.

ترجع البداية الأولى للتفاوض والحوار بين الدولة العثمانية والأئمة الزيدية في العهد العثماني الثاني إلى عهد الإمام المنصور محمد حميد الدين والد الإمام يحيى، إثر نجاحه في حصار صنعاء سنة 1308هـ/1890م، وفشل العثمانيين في القضاء عليه أو اعتقاله بعد تمكنهم من فك الحصار عن صنعاء، ما دفعهم في السنة الموالية إلى إرسال وفداً⁵² لاستطلاع أوضاع الإمام والحوار معه، لكنه رفض مقابلته واقتصرت وسيلة التفاوض معه على

49 قامت الباحثة أمة الملك الثور بتحقيق المخطوط ودرسته ضمن بحث بعنوان "رحلة أعيان اليمن إلى اسطنبول" نشر في مجلة جامعة صنعاء للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد الثالث، سنة 2008م، وفي عام 2015م قام الباحثان عبد الله محمد الحيشي وحسني محمد ذياب بتحقيق المخطوط وتقديم له في عمل نال جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة 2015م وصدرت الطبعة الأولى بعنوان "رحلة أعيان اليمن إلى اسطنبول 1907" ضمن: مشروع "ارتياد الآفاق"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز العربي للأدب الجغرافي، (وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث).

50 محمد بن عبد الوهاب الغساني، سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحقيق وتقديم عبد الرحيم بنحادة، ط1، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا، طوكيو، 2005م، ص 17.

51 كان السلطان عبد الحميد الثاني مدركاً لأهمية السلام في تقدم الدولة العثمانية وهذا ما عناه بقوله "إن أكبر أملي هو السلام... وإذا استطعت إدامة السلام فإننا نكون قد خطونا الخطوة الأساسية للتغلب على مصاعب الماضي". انظر: محمد علي، م.س، ص 117.

52 أبرزهم محمد مثنى الحسيني ياور السلطان عبد الحميد الثاني. انظر: علي بن عبد الله الإرياني، سيرة الإمام محمد بن يحيى حميد الدين، الدر المنثور في سيرة الإمام المنصور، تحقيق ودراسة محمد عيسى صالحية، ج 1، ط 1، دار البشير، عمان، 1997م، ص 364؛ زيارة، نزهة... م.س، ص 164.

تبادل الرسائل فقط⁵³ دون جدوى؛ بسبب تمسك كل طرف بمواقفه وانعدام الثقة بينهما⁵⁴، ثم استمرت المحاولات الحوارية التفاوضية بين الجانبين بصورة غير مباشرة، عبر الوفود والمبعوثين من قبل السلطان العثماني إلى اليمن والمقترحات والخيارات المقدمة من قبل والي العثمانيين في اليمن للإمام، فضلاً عن المراسلات المتبادلة بين السلطان ومبعوثه والإمام⁵⁵، وظل الوضع يتأرجح بين استمرار المحاولات وتوقفها - رغم دلالتها في اعتراف العثمانيين ضمناً بالإمام وأهمية التخاطب معه - لكن دون أن يجدي ذلك في تحقيق أي تقدم على طريق حل النزاع حتى وفاة الإمام المنصور سنة 1322هـ/1904م⁵⁶.

وبعد أن خلف الإمام يحيى والده المنصور، كثفت العمليات العسكرية ضد العثمانيين وحقق انتصارات مهمة عليهم إثر إعلانهم الجهاد⁵⁷ ضدهم، مستثمراً أخطاء وضعف بعض وجوه الإدارة العثمانية في اليمن، فحاصر صنعاء⁵⁸ من جديد، ما فرض على العثمانيين فتح باب التفاوض معه، عبر وفد وافق الإمام على مقابلته - بخلاف أبيه - في أول مفاوضات مباشرة بين الجانبين أفضت إلى عقد صلح سمح بموجبه للعثمانيين وعائلاتهم سنة 1323هـ/1905م مغادرة صنعاء بسلام، مقابل تسليم المدينة للإمام يحيى وإحالة مطالبه إلى السلطان العثماني للبت فيها، كأول وجهة نظر معلنة للإمام⁵⁹ توضح تصوره الخاص بإنهاء الصراع العسكري مع العثمانيين بصورة سلمية، تترك له التصرف في الشؤون الداخلية وللدولة العثمانية الأمور الخارجية، وهو ما اعتبرته الدولة العثمانية انتقاصاً لسيادتها؛ خاصة مع حرص السلطان عبد الحميد على تركيز السلطة في يده وإضعاف مناوئيه⁶⁰.

⁵³ الإيراني، م.س، ج 1، ص 364.

⁵⁴ تمسك العثمانيين بأحقية السلطان بالخلافة وضرورة دخول الإمام في طاعة الدولة العثمانية، بينما تمسك الإمام يحيى بحقه في الإمامة التي اعتبر أن شرعيتها مستمدة من اتصال نسبه بآل بيت رسول الله، والإرث التاريخي لحكم أجداده اليمن فترات زمنية طويلة نسبياً. انظر: الإيراني، م.س، ج 1، ص 153.

⁵⁵ عبد الواسع يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط 1، المطبعة السلفية، القاهرة، 1346هـ، ص 184.

⁵⁶ عن تلك المحاولات انظر: الجرافي، م.س، ص 223، 224؛ الواسعي، م.س، ص 156-158، ص 164-172، ص 181، 182؛ الشامي، م.س، ص 200.

⁵⁷ أشير إلى ذلك ضمناً في خطاب الإمام الذي أعلن فيه توليه الإمامة خلفاً لوالده، فطلب من الأهالي "...المسارعة إلى فريضة الجهاد وتطهير أرض الله ممن يبغى الفساد" انظر: مطهر، م.س، ج 1، ص 93، 95.

⁵⁸ اتسم والي العثماني عبد الله باشا بالضعف، وللإطلاع على العمليات العسكرية ويوميات الحصار انظر: سالم، م.س، ص 73-75.

⁵⁹ يحتمل أن تكون هي المطالب التي تضمنها الاتفاق بين الإمام يحيى والوالي العثماني الجديد توفيق باشا سنة 1323هـ/1905م والتي رفعت للسلطان العثماني وعددها 15 مطلباً. انظر: محمد بن أحمد زبارة، أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة، ط 1، المطبعة السلفية، 1376هـ، ص 78.

⁶⁰ سالم، م.س، ص 81، 82.

استمرت ثنائية الحرب والسلام حاضرة في المشهد اليمني؛ حيث يخوض الطرفان مفاوضات سلمية مباشرة وغير مباشرة بالتزامن مع الاستعدادات الحربية، وفي هذا السياق، وصل إلى صنعاء سنة 1324هـ/1906م⁶¹ وفد عثماني⁶² تباحث مع الإمام يحيى حول إمكانية عقد صلح بين الجانبين لكنه فشل في ذلك؛ بسبب تمسك الإمام بوجهة نظره السابقة الخاصة بالصلح،⁶³ وحينها وصل أحمد فيضي باشا إلى اليمن مجدداً على رأس قوة عسكرية كبيرة تمكن بها من استعادة صنعاء، دون القضاء على الإمام يحيى الذي ألحق هزائم تالية بالقوات العثمانية⁶⁴، ومن ثم تراجع فكرة الحسم العسكري والعودة إلى التفاوض.

ويظهر أن الدولة العثمانية لجأت إلى تنويع وسائل الضغط التفاوضي للتوصل إلى الصلح؛ حين تم تبادل الرسائل بين مجموعة من علماء مصر والإمام يحيى، وأرسل شريف مكة (علي عبد الله عون) سنة 1324هـ/1906م وفداً من قبله برسالة إلى الإمام الذي أعطى الوفد - بعد التفاوض المباشر معه - رسالة جوابية عن وجهة نظره حول الصلح⁶⁵، لكن دون النجاح في ذلك.

استمرت المحاولات التفاوضية بطرق غير مباشرة عبر الرسائل المتبادلة لعدة أشهر، تلاها العودة إلى التفاوض المباشر عبر إرسال وفد يضم عناصر لهم خبرة بأوضاع اليمن واتصال بإمامها ورجاله⁶⁶، وأجرى الوفد مفاوضات⁶⁷ مع مندوبي الإمام وخرج بمؤشرات إيجابية لصلح لم يكتب له التحقق؛ لتمسك كل طرف بمطالبه وسياسته وتحميل مندوبي الإمام الوالي أحمد فيضي باشا المسؤولية عن الفشل بحجة تغليب الحل العسكري، وبالتالي تم عزل فيضي باشا وتعيين والي جديد نجح في تهدئة الأوضاع خاصة مع اعترافه بوضع خاص للإمام يحيى⁶⁸، تلى

⁶¹ الواسعي، م.س، ص 206.

⁶² برئاسة محمود نديم معاون والي اليمن. انظر: أحمد عبد الله الجنداري، الدرر المنتقاة في سيرة المتوكل على الله وخصاله المرتقاء، دار المخطوطات، صنعاء، ق 87، 95؛ زيارة، أئمة...، م.س، ص 102-110؛ الواسعي، م.س، ص 206-211.

⁶³ الجنداري، م.س، ق 87.

⁶⁴ للمزيد انظر: فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني لليمن 1872-1918م، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م، ص 163-165؛ هارولد انجرامز، اليمن الأئمة والحكام والثورات، ترجمة نجيب باوزير، ط 1، مركز البحوث والدراسات اليمنية، عدن، 2007م، ص 56.

⁶⁵ زيارة، أئمة...، م.س، ص 78، 89.

⁶⁶ كان هذا الوفد برئاسة محمود نديم معاون والي اليمن. انظر: زيارة، نزهة...، م.س، ص 384، 476.

⁶⁷ يبدو أن الصدارة العظمى وبالتنسيق مع المأمورين العثمانيين في اليمن والحجاز كانت تدفع بين الحين والآخر ببعض العلماء والأعيان والسادة والأشراف؛ للاتصال بالإمام يحيى ودعوته للطاعة وإنهاء ثورته ضد العثمانيين، ويغلب الظن على أن الشيخ أبو الهدى الصيادي - نقيب أشراف حلب المقيم في اسطنبول ومحل ثقة السلطان عبد الحميد - كان يقف وراء تلك الرسائل والوفود التي توالى على الاتصال بالإمام يحيى، وبالأذات خلال سنة 1324هـ/1906م. فيما يخص تلك الشخصيات والوفود ونص المراسلات المتبادلة بينها وبين الإمام وبين هذا الأخير والسلطان العثماني آنذاك. انظر: الشرقي، م.س، ج 1، ص 42-79.

⁶⁸ الوالي حسن تحسين باشا. انظر: سالم، م.س، ص 85؛ الشامي، م.س، ص 205.

ذلك إرسال وفد جديد إلى اليمن مكون من شخصيات عثمانية كبيرة منتصف ربيع الآخر 1325هـ/أواخر مايو 1907م بهدف تشكيل وفد من أعيان اليمن لمقابلة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني والتباحث حول أوضاع اليمن وسبل إصلاحها، وكان على رأسه غرمضان الذي دون محطات الرحلة ويوميات مشاهداته في اسطنبول.

2- المشاهدات:

تحتل رحلة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول موقع الريادة بين الرحلات اليمنية السابقة واللاحقة لها إلى بلدان شتى؛ من حيث رصدها مشاهدات أول يمني في التاريخ الحديث خارج بلده، صور فيها انطباعاته وانبهاره بما شاهده في بلد غريب يختلف عن موطنه من حيث التقدم والعمار⁶⁹، بما يحيل أن شخصية غرمضان التي تنتمي إلى عصر متقلب ومضطرب سياسياً تعد شاهدة على خصوصيات ذلك العصر في بعدها الوطني والدولي، وهو ما سنلاحظه في تفاصيل الرحلة⁷⁰، ويمكننا تتبع وتصنيف تلك المشاهدات على النحو الآتي:

2-1 المشاهدات السياسية:

يتعلق الأمر هنا برصد وتحليل ما دونه غرمضان في رحلته ذات الهدف السياسي، وما ارتبط بذلك من مشاهداته حول مسألة الاستقبال الرسمي للوفد اليمني واللقاءات مع المسؤولين العثمانيين في إطار التحضير لمقابلة السلطان ومناقشة المستقبل السياسي لليمن، وكذا مسألة الدعاء للسلطان والوداع.

- استقبال الوفد

يصف لنا غرمضان الجانب البروتوكولي في الاستقبال لوفد أعيان اليمن في إسطنبول بصورة زاهية، تعكس لحظة مهمة من لحظات تشكل الصورة عن الدولة العثمانية بشكل عام في الكتابات اليمنية الحديثة، حيث بدأت مراسم الاستقبال فوق السفينة التي أقلتهم من اليمن من قبل وفد خاص⁷¹ أبلغهم سلام السلطان - ما ولد ارتياحاً لدى وفد أعيان اليمن عبروا عنه بالدعاء للسلطان - وتم إنزالهم إلى سفينة صغيرة أوصلتهم إلى الميناء، ومنه

⁶⁹ الحبشي، م.س، ص 236.

⁷⁰ مصطفى الغاشي، "مشاهدات مغربي في استانبول في العهد الجمهوري، الرحلة المشرقية لمحمد بن يحيى الصقلي 1928-1929م"، ضمن: شبكات التواصل في المغرب والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحيم بنحادة - عبد الرحمن المودن - محمد الزهر الغربي، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2008م، ص 141-154.

⁷¹ مكون من الأمير اللواء محمد باشا وأحد الياورات (مرافق - معاون، وقد يكون ما يعرف اليوم بمدير المراسم) الخاصة. انظر: غرمضان، م.س، ص 33، 34، محمود عامر، "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان 117-118، كانون الثاني-حزيران 2012م، ص 357-381.

بواسطة عربات النقل المخصصة إلى دار الضيافة في المابين⁷² الهمايوني⁷³، حيث التجهيزات اللازمة⁷⁴ والفريق المكلف بالعناية بالوفد طوال مدة الإقامة في اسطنبول⁷⁵.

- برنامج الوفد

دون غرمضان مشاهداته لعدد من القضايا ذات الطابع السياسي، والتي تكتنز في جوهرها رمزية سياسية تحيل على محاولة حاشية السلطان إشغال الوفد اليمني ببرنامج (هامشي) يحيد به عن الهدف الأساس لقدمه من اليمن، ويولد لديهم الشعور بالتضجر والملل من محاولات تأجيل مقابلة السلطان أو الحيلولة دون مقابلته أو إفراغ المقابلة من مضمونها مسبقاً، مع الإيعاز للوفد بالتركيز على المطالب الخاصة عوضاً عن العامة، ويأتي في مقدمة ذلك أداء أعضاء الوفد صلاة الجمعة في الجامع الحميدي⁷⁶، وما رافق ذلك من مشاهد تصف السلطان وحاشيته

⁷² المابين: القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الحرم (جناح الحرم) وما بين الدوائر الخارجية، كان يقضي فيه السلطان يومه حال عدم خروجه من القصر، ويطلع على ما يرفع له من الصدر الأعظم، ويأمر بما يراه من أوامر تنقل إلى الصدر الأعظم، وأصبح بمثابة ديوان خاص للسلطان عبد الحميد (في قصر يلدز) مؤلف من مستشاريه وكتبته ومرافقيه، والمرجع الأول للقرارات إثر حل مجلس المبعوثان سنة 1878م وتسريح مجلس الوزراء أو الباب العالي وتركيز السلطات بيده، وهي منحوتة من اللغة العربية تعني صلة وصل (ما بين)، أي باب ما بين الباب العالي والباب الهمايوني مخصص لنقل أوامر السلطان إلى الصدر الأعظم. انظر: صابان، م.س، ص 198؛ عامر، م.س، ص 387.

⁷³ الهمايوني: همايون كلمة تعظيم خاصة لسلطين الدولة العثمانية؛ مكونة من هما فارسية، و"أما" تركية، تعني طائراً أسطورياً ذا حظ وقدرة، وقد اتخذها سلاطين الغز الترك رمزاً لهم، ومنهم انتقل إلى السلاطين العثمانيين، كان يستخدم مضافاً للمتعلقات الخاصة بالسلاطين. انظر: صابان، م.س، ص 226.

⁷⁴ وصف غرمضان مستلزمات النوم والراحة والشرب والإضاءة بحسب مشاهداته لدار الضيافة بقوله: "وفرشوها وجعلوا لكل واحد منا تك (بتك) على حدته وجميع محتاجته من الفراش والدفء وآلات الشرب والقناديل والنبات وغير ذلك". انظر: غمضان، م.س، ص 34.

⁷⁵ كان هذا الفريق برئاسة عثمان زكي بك مدير المابين، ومحمد عزت بك مدير جناح المابين، وتحت إمرتهما كل من حسين بك، ومحيي الدين بك، وصالح الدين بك، وعلي رضا بك، وخورشيد بك، وقد سر وفد أعيان اليمن بالفريق كونهم بحسب غمضان: "قائمين بخدمتنا ليلاً ونهاراً لا يفارقونا أبداً". وتجدر الإشارة هنا إلى أن غمضان ذكر أن جميع أعضاء الوفد استقروا في المابين همايوني "فقلقونا بالعربيات فركبناها جميعاً ووصلنا إلى دار الضيافة في المابين همايوني"، ولم ترد في رحلته أية إشارة إلى تفرق أعضاء الوفد في أماكن عدة كما هو الشأن عند عائشة بنت السلطان عبد الحميد، حين دونت في مذكراتها في معرض حديثها عن مشاهداتها مقابلة وفد أعيان اليمن لوالدها "وقد مكث بعض كبار هؤلاء الرجال ضيوفاً على أبي الهدى في بيته، وأقام الباقون في دار الضيافة التي شيدها الوالد في تكية ظافر أفندي، والضيوف من أمثال هؤلاء كانوا يقيمون في هذين المكانين، وعند إقامة مراسم تحية الجمعة يأتون الجامع فيؤدون الصلاة ثم يأخذون عطاياهم بواسطة أبي الهدى أفندي ويعودون إلى بلادهم". انظر: غمضان، م.س، ص 34؛ عائشة أوغلي، م.س، ص 81.

⁷⁶ الجامع الحميدي (الحميدية): أو جامع يلدز، يقع أمام قصر يلدز على تل مرتفع في حي بكشتاش في اسطنبول شيده السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1585م بواسطة كبير معماري الدولة آنذاك سركس باليان الأرمني الأصل، يعتبر آخر مسجد سلطاني في اسطنبول، كان يرمز لرؤية السلطان عبد الحميد للدولة العثمانية العظيمة والمهيبة باعتبارها الخلافة الإمبراطورية الحديثة، وبينما كان السلاطين العثمانيون في الماضي يؤدون صلاة الجمعة في جامع أيا صوفيا أو السليمانية أو السلطان أحمد أصبحوا في الفترة الحميدية يؤدونها في جامع يلدز، حيث كانت طقوس صلاة الجمعة تحظى بأهمية ودور مميز في تعزيز صورة السلطان في أعين المسلمين في جميع أنحاء العالم، وكان إلقاء خطبة الجمعة باسم السلطان جزء من طقوس ترسيخ شرعية عبد الحميد الثاني والعثمانيين خلفاء جميع المسلمين، حيث كان الناس ومعهم كبار الشخصيات الأجنبية والوفود والمبعوثين من الدول المختلفة يصطفون وينتظرون بحماس وترقب لمشاهدة السلطان عبد الحميد وتحيته وهو يعبر السلاطون (دار الضيافة-البهو) لأداء صلاة الجمعة في زيارته الأسبوعية إلى يلدز بموكب مهيب، وهو الأمر الذي قام به وفد أعيان اليمن حيث زاروا هذا المسجد خمس مرات لصلاة الجمعة ورؤية وتحية السلطان خلال مدة بقائهم في اسطنبول، على أن غمضان مع ذلك لم يقدم لنا أي وصف للجامع الحميدي ولا

أثناء التوجه لأداء الصلاة وبعدها، في كل جمعة طوال مدة إقامة الوفد بإسطنبول وأداءه صلاة الجمعة هناك بموجب الإرادة⁷⁷ السلطانية، واكتفاء الوفد وارتياحه برؤية السلطان وإشارات يده أو التفاتته نحوهم من بعد⁷⁸.

وبجانب ذلك سلط غمضان الضوء على الزيارات المتعددة التي قام بها بعض المسؤولين من حاشية السلطان العثماني لوفد أعيان اليمن في مقر إقامته لأغراض سياسية متباينة، غطت في محصلتها جل مدة إقامة الوفد في اسطنبول، ابتداءً بإبلاغهم "سلام حضرة مولانا السلطان"⁷⁹، ثم إخبارهم بأن "حضرة السلطان الأعظم أمر بأن يعزموا بنا للتفرج وزيارة المقامات الشريفة أينما نريد"⁸⁰، مروراً بالزيارة المفاجئة التي تم فيها إعطاء الوفد "إكراميات من حضرة السلطان"، وأبلغوهم بأنه من أراد أن يكتب أو يعرض شيء إلى مقام السلطان "العتبة العلية" فقد تم

للسلطان عبد الحميد مقارنة مع الشرقي الذي ترأس وفد الإمام يحيى إلى اسطنبول سنة 1327هـ/1909م بعد انتهاء مهمة وفد أعيان اليمن ووصف الجامع والسلطان بقوله "فأرأينا قبة عظيمة كثيرة الزخرفة عالية الصعود، وفيها كشك عال له شبك إلى المسجد، وهو جهة شرق الشام على يسار المصلي، وكشك وراء المصلين للحريم... وانتظرنا ورود الذات الشاهانية خارج المسجد الحميدي في ساحات القبة فلما توجه إلينا ضرب بالسلام المعتاد، ورأينا رجلاً ربعةً، صبيح الوجه، مربع القامة، قد خضبت لحيته بالشيب، لم يكن بالطويل المفرط ولا القصير المفرط، فدخل ودخلنا للصلاة، وخطب الخطيب باختصار تام". انظر: غمضان، م.س، ص 35، الشرقي، م.س، ج 2، ص 295.

⁷⁷ الإرادة: أمر سلطاني أو مرسوم. انظر: صابان، م.س، ص 27؛ عامر، م.س، ص 359.

⁷⁸ بلغ عدد الجمع التي صلاها الوفد مع السلطان عبد الحميد الثاني في الجامع الحميدي خمس جمع، في الجمعة الأولى أشار غمضان إلى رجوع السلطان إلى قصره بعد أداء الصلاة والتفرج على العساكر والخيول، ووصف الثانية بقوله: "شاهدنا حضرة السلطان والتفت إلينا حال دخوله إلى الجامع وأشار بالسلام بيده دفعتين وبعد أداء الصلاة رجعنا إلى دار الضيافة"، أما في الثالثة فيقول: "واصطفينا بخارج الجامع كالعادة وقدامنا المشيرين والباشوات وخلفنا العساكر والموسيقى إلى أن وصل حضرة السلطان ونزل من فوق العربية والتفت إلينا بإشارة السلام بيده، ودخل الجامع ونحن دخلنا بعده لأداء الصلاة ثم بعد الصلاة كذلك خرجنا قبله واصطفينا فخرج وركب العربية وأركب ابنه الصغير عبد الرحمن أفندي جنبه وابنه الكبير برهان الدين أفندي في عربية أخرى، وابنه الثالث مجد الدين في عربية ثالثة، ثم بعد ذلك تفرجنا على تلك الأبهة الكبيرة من العساكر والخيول، ثم رجعنا إلى دار الضيافة"، وفي الخامسة آخر جمعة لهم مع السلطان قبيل العودة لليمن حين "حصل لنا مزيد الالتفات من حضرة السلطان وقت الدخول ووقت الخروج". انظر: غمضان، م.س، ص 35، 38، 43، 44، 54، 56، 60.

⁷⁹ قام بالزيارة عمر رشدي باشا وبمعيته أحد المرافقين بعد أداء الوفد أول صلاة جمعة 3 جمادي الأولى 1325هـ/14 يونيو 1907م. انظر: غمضان، م.س، ص 35.

⁸⁰ قدم إلى مقر الوفد الفريقان هادي باشا وثابت باشا أعضاء الوفد السلطاني المرافق لوفد أعيان اليمن يوم الأحد 5 جمادي الأولى 1325هـ/16 يونيو 1907م، وهو اليوم الذي تم مباشرة البرنامج فيه، وزيارة أماكن متعددة في اسطنبول بلغت 9 زيارات متقاربة بصفة رسمية (أو أضفي عليها الطابع الرسمي) عبر عنها غمضان - عند كل زيارة - بعبارات من قبيل: صدرت الإرادة السنية بعزمنا للتفرج على، أو أمر حضرة السلطان بعزمنا إلى، أو بعزمنا لزيارة، وتجدر الإشارة أن وفد أعيان اليمن قام بعدد من الزيارات المتقطعة إلى بعض مناطق اسطنبول دون توجيه أو برنامج رسمي (إرادة)، وهو ما نستشفه من خلال استعمال غمضان عبارة: "عزمنا إلى"، والتي كررها 7 مرات في إشارة لعدد تلك الزيارات التي قام بها الوفد من تلقاء نفسه بعيداً عن البرنامج الرسمي، ما يحيلنا على محاولة الوفد التخلص من الشعور بالملل الناجم عن عدم ممارستهم أية نشاط أو زيارتهم من قبل بعض المسؤولين العثمانيين وحاشية السلطان، فضلاً عن البقاء في دار الضيافة دون برنامج معين رسمي أو غير رسمي وهو ما عبر عنه غمضان بعبارة "نسمنا" العامة في صنعاء بمعنى استرحنا والتي بلغ عددها 13 يوماً بصورة غير منتظمة توزعت على 10 أيام تم فيها البقاء في دار الضيافة دون الخروج أو ذكر أي نشاط للوفد، و3 أيام قسمت ساعاتها بين البقاء بدار الضيافة والتنزه في البستان المجاور لدار الضيافة، أو خروج بعض أعضاء الوفد لشراء بعض الحاجيات من السوق. وسوف يأتي معنا الحديث عن الأماكن المزارة وتواريخها في بقية المشاهدات بحسب تصنيفها. للمزيد انظر: غمضان، م.س، ص 35-56.

تخصيص موظف "مأمور بإبلاغها من طريقه"⁸¹، وكذا الزيارة التي تم فيها إخبار الوفد بأنه قد تم إبلاغ السلطان بجميع أحوال اليمن ولم يعد هنالك حاجة لعرضها عليه مرة أخرى، وبأن على الوفد تنظيم "لائحة بما يصلح ولاية اليمن" كي يتم رفعها للسلطان بموجب أوامره⁸².

وقد ذكر غرمضان أن الوفد أعد لائحة مكونة من 22 بنداً وتم تقديمها لمدير الدائرة لتسليمها إلى السلطان⁸³، وأنهم كانوا ينتظرون دعوتهم من قبل المسؤولين العثمانيين لمناقشة تلك البنود سوياً لكنهم "أضربوا عن ذلك" وأرسلوا بعد مدة أحد الشخصيات المقربة من السلطان العثماني إلى مقر إقامة الوفد⁸⁴؛ لاستفسارهم عن حقيقة الإمام يحيى ومطالباتهم بنصحه وترك محاربته للدولة العثمانية، مقابل تخصيص معاش كبير ودار للسكن في المكان الذي يريده سواءً في صنعاء أو المدينة المنورة، وكان رد الوفد بأنهم سيبدلون النصيحة للإمام⁸⁵، ثم تلك

⁸¹ من قبل أدهم باشا وشاكر باشا في يوم الخميس 9 جمادي الأولى 1325 هـ/20 يونيو 1907م، وكان شاكر باشا هو المكلف بإبلاغ العتبة العلية. انظر غرمضان، م.س، ص 38.

⁸² قام بالزيارة الفريقان ثابت باشا وأدهم باشا يوم الجمعة 17 جمادي الأولى 1325 هـ، 28 يونيو 1907م. انظر غرمضان، م.س، ص 42، 38.

⁸³ الشرقي، م.س، ج 1، ص 91؛ غرمضان، م.س، ص 42. تجدر الإشارة إلى أن تلك البنود لم ترد في رحلة غرمضان أو أي من الكتب التاريخية، وقد تمكنا من الحصول على نص اللائحة الموجودة في مكتبة آل المكرم بالحديدة عن طريق أحد الزملاء الباحثين من أبناء تلك المدينة والذي قام بنشرها في أطروحته الأكاديمية، وهي عبارة عن وثيقة تاريخية مهمة تؤكد أن الوفد - بجانب عروض مطالبه الخاصة - حاول تسليط الضوء على أوضاع اليمن وقدم مقترحات للسلطان لإصلاحها. للاطلاع على بنود اللائحة ونسخة الوثيقة انظر: عبد الودود مقشر، **حركات المقاومة والمعارضة في تهامة 1918-1962م**، أطروحة دكتوراه، جامعة عدن، كلية الآداب، 2012م، ص 76، 77، 456.

⁸⁴ قام بالزيارة الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي صديق السلطان عبد الحميد الثاني ومحل ثقته بحسب مذكرات السلطان نفسه، وقد ذكرت بنت السلطان عبد الحميد أن أبو الهدى كان منتصباً مع السلطان لطريقة صوفية واحدة، وكان شخصاً ذكياً ولذا فقد كان والدها يستخدمه في الأمور السياسية الخاصة بمسائل العرب واستدعاه إلى استنبول إبان ثورة اليمن ورؤساء القبائل، ويبدو أن السلطات العثمانية أدركت أن وفد أعيان اليمن لا يمثل القوة الحقيقية في اليمن، ولا يستطيع التأثير على ثورة الإمام وإيقافها، فضلاً عن عدم ثقة الإمام بالوفد واعتباره لا يمثل مصلحته بل مصلحة العثمانيين؛ حيث لم تتوقف الحرب ولم تهدأ الثورة في اليمن بل صعد الإمام من هجماته ضد العثمانيين إبان تواجد الوفد في استنبول، ولذا لم يتم مناقشة اللائحة من قبل المسؤولين العثمانيين مع الوفد كما كان يتوقع، بل قدم إليهم أبو الهدى يطلب منهم تقديم عروض مغرية للإمام ليتخلى عن ثورته ضد العثمانيين ويغادر اليمن، تجدر الإشارة أن تاريخ الزيارة غير محدد، وقد ذكر غرمضان أنها كانت بعد مدة من صياغتهم اللائحة ومرجح أنها في أواخر جمادي الأولى. انظر: حرب، م.س، ص 151؛ عائشة اوغلي، م.س، ص 80، 81؛ غرمضان، م.س، ص 42، 43؛ الشرقي، م.س، ج 1، ص 90، 93.

⁸⁵ هذا العرض يؤيد ما ذهبنا إليه من ترجيح وقوف الشيخ أبو الهدى الصيادي وراء العروض السابقة المشابهة والتي اقترحتها الوفود والوساطات من علماء وأعيان وأشرف على الامام يحيى سنة 1324 هـ/1906م وكذا العرض اللاحق على وفد الإمام الذي زار استنبول سنة 1297 هـ/1909م بدعوة من السلطان عبد الحميد لكنه لاقى معارضة وتصلب في الرد من قبل وفد الإمام بحجة أن ذلك العرض "لا تسكن به الفتن وأن ذلك يستدعي تجدد أحداثا وظلم مما قبلها" وذلك بخلاف الموافقة الضمنية التي أبداه وفد أعيان اليمن وعدم اعتراضهم على عرض الشيخ الصيادي. انظر: غرمضان، م.س، ص 43؛ الشرقي، م.س، ج 1، ص 112؛ ج 2، ص 281.

الزيارة التي تم فيها استفسار الوفد عن الملتزمين⁸⁶ فقط⁸⁷، وانتهاءً بالزيارة التي طلب فيها من أعضاء الوفد كتابة المطالب الخاصة بهم بصورة منفردة وتسليمها إلى مدير الدائرة⁸⁸.

- مقابلة السلطان

تأتي مقابلة وفد أعيان اليمن للسلطان العثماني كأحد أهم المشاهدات السياسية التي دونها غرمضان، فقد رصد التحضيرات النهائية للقاء حين تم إبلاغ الوفد من قبل الباش كاتب⁸⁹ بعد صلاة الجمعة في غرة جمادي الآخرة 1325 هـ/12 يوليو 1907م بأن موعد مقابلتهم للسلطان وعودتهم إلى بلادهم سيكون بعد أسبوع⁹⁰، حيث تفاجأ الوفد في مقر إقامته الساعة السابعة صباح الخميس 7 جمادي الآخرة 1325 هـ/18 يوليو 1907م بزيارة عدد من المسؤولين والموظفين العثمانيين، وقيامهم بتوزيع الإكراميات والنيشانات⁹¹ على أعضاء الوفد.

ويوثق لنا غرمضان مشاهداته عن المقابلة التي كانت في الساعة الثامنة صباحاً، حيث يقول إنه تم استدعاء جميع أعضاء وفد أعيان اليمن "إلى المايين الهمايوني لمواجهة حضرة السلطان الأعظم"، وأنهم انتظموا في صف واحد "وعزمننا مصطفىين إلى مقامه الشريف واصطفينا خارج المفرج الذي هو فيه، ولم نشعر إلا وقد خرج إلينا واستقام خارج الباب ونحن قدامه وحيانا بالسلام"⁹²، ثم يشير إلى المسؤولين والموظفين العثمانيين ومكانهم آنذاك⁹³، وقدم وصفاً مزهواً بالفخر الاستثنائي للحظات تكريم أعضاء الوفد بالميدالية الفضية بقوله: "فأمر

⁸⁶ الملتزمين: جمع ملتزم، لقب موظف من العهد العثماني كان يتعهد أو يلتزم للدولة بأداء مجموع الضرائب أو الأعشار المفروضة على محاصيل بعض الأماكن، ثم يقوم بمباشرة تحصيل هذه الأموال من الرعايا بزيادة نسبية، وكانت الدولة تجري مزايدة بين الملتزمين لتحصل على أفضل العروض، وللملتزم الحق باستخدام كافة الوسائل بما في ذلك القوة، وقد يكون ما يحصله أموالاً نقدية أو عينية. انظر: الخطيب، م.س، ص 407؛ صابان، م.س، ص 215.

⁸⁷ قام بها محسن بيك وتاريخها غير محدد ومرجح أنها في آخر جمادي الأولى. انظر: غرمضان، م.س، ص 42.

⁸⁸ صاحب الزيارة شاعر باشا بتاريخ 28 جمادي الأولى 1325 هـ/9 يوليو 1907م، ومدير الدائرة هو عثمان زكي بيك. انظر: غرمضان، م.س، ص 53.

⁸⁹ باشا كاتب: مصطلح تركي عربي من باش التركية بمعنى الرأس والرئيس، وكاتب العربية، أطلق في العهد العثماني على رئيس الكتاب في ديوان الدولة أي رئيس الديوان. انظر: حسن حلاق؛ عباس الصباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م، ص 34؛ عامر، م.س، ص 367.

⁹⁰ عبر غرمضان عن ذلك بالبشارة التي ولدت السرور لدى أعضاء وفد أعيان اليمن، ما يعكس التضجر الذي حصل لهم من طول بقائهم في مكان إقامتهم دون مقابلة السلطان التي تأخرت كثيراً عما كان متوقع، بالتزامن مع هاجس الحنين للعودة لبلدهم. انظر: غرمضان، م.س، ص 56.

⁹¹ النيشانات: مفردتها نيشان، لفظ فارسي أصله نشان، ومعناه علامة أو إشارة، استخدم بمعنى وسام منذ عهد السلطان محمود الثاني، كما يعني الفرمان الصادر عن السلطان، وأطلق على المكافآت من سيوف مرصعة وريش. انظر: الخطيب، م.س، ص 429؛ بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص 337.

⁹² تتحدث عائشة بنت السلطان عبد الحميد عن مشاهدتها لحظات استقبال والدها لوفد أعيان اليمن بأن والدها "أمر بوضع كرسي العرش أمام دائرة المايين الصغيرة واستقبل فيها هؤلاء الرؤساء... فدخلوا جميعاً بالترتيب بملايسهم المتباينة الألوان" انظر: غرمضان، م.س، ص 57؛ عائشة أوغلي، م.س، ص 81.

⁹³ ذكر غرمضان أن السلطان كان حاضراً ويستخدم قدامه المشير أدهم باشا والمشير شاعر باشا والباش كاتب تحسين باشا ومعاون الباش كاتب عزت باشا والشيخ محمد أبو الهدى أفندي (البيادي)، وغيرهم ممن تحتهم في الرتبة، لكنه رغم ذلك لم يقدم لنا وصفاً للسلطان كما ذكرنا سابقاً. انظر: غرمضان، م.س، ص 57.

السلطان بأن يعلقوا على صدورنا المداوية الفضة، فمروا من طرف الصف إلى آخره، وهما يأخذان المداوية من وسط طبق بيد جاوش ويعلقوها بأيديهم على كل واحد منا، وما هذا إلا زيادة التفات من حضرة الشاهانية إلينا ما قد سبق لأحد مثلها"⁹⁴.

ويشير غرمضان أنه تم بعد ذلك قراءة كلمة عن السلطان بالتركية وترجمت إلى العربية، حيث تعد من الوثائق التاريخية والسياسية المهمة في هذه الرحلة⁹⁵، ثم تأتي مسألة الدعاء بما تحيل عليه من مدلولات سياسية مهمة⁹⁶ ضمن ما رصده غرمضان في هذه المقابلة؛ فبعد الانتهاء من كلمة السلطان قام أحد أعضاء وفد أعيان اليمن "بمد أكف الابتهاال وقرأ دعاءً طويلاً مضمونه دوام عمر وعافية حضرة السلطان حفظه الله، وأمن على دعائه الحاضرون"⁹⁷.

كما رصد غرمضان مشاهداته لاختتام المقابلة بالسلام على السلطان وتقديم المطالب الخاصة "ثم بعد ذلك تقدم كل منا إلى بين يديه وقبلنا يده اليمنى، وبعض منا قبل أقدامه وهو داع لنا مشمرا، وراجع الرفقاء في بعض محتاجاتهم وكل ما طلبوه أسعدهم لذلك"⁹⁸، ووثق الساعات الأخيرة للوفد في اسطنبول؛ إذ تمت العودة إلى مقر

⁹⁴ غرمضان، م.س، ص 57، 58.

⁹⁵ قرأها بالتركية الباش كاتب تحسين باشا وترجمها إلى العربية الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي، وقد تمحورت حول بيان هدف السلطان من دعوة وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول بمعرفة حقيقة أوضاع اليمن، وإظهار حسن نية السلطان وموقفه مما يحدث من وقوف الإمام يحيى ضد الدولة العثمانية، واعتباره تمرد يستوجب العقاب وطلب من أعضاء الوفد إبلاغ الأهالي وإقناعهم بذلك حال العودة، وإخبارهم بموقف السلطان الإيجابي من القضايا العادلة لليمن ورغبته بإسعاد الرعية وإصلاح الأوضاع وسيادة العدل، عبر لوائح وجه اللجان بإعدادها لإصلاح أوضاع اليمن عموماً وحفظ الحقوق الفردية خصوصاً، ونوه بأوامره بتكريم الوفد بالنياشين قبل المقابلة وميدالية اللياقة الفضية أثناء المقابلة، لتكون تذكراً لزيارتهم إلى اسطنبول وحافزاً لهم لبيان موقف السلطان لأهالي اليمن، وأبلغهم بأنه وجه بتخصيص مركب خاص لإعادتهم إلى اليمن، متمنياً لهم الوصول بالصحة والعافية، للاطلاع على نص كلمة السلطان: انظر: غرمضان، م.س، ص 58، 59.

⁹⁶ بجانب الدعاء للسلطان هنا سبق الدعاء له فور وصول وفد أعيان اليمن إلى اسطنبول واستقبالهم في ظهر السفينة وإبلاغهم بسلام السلطان، وتخصيص وتجهيز مقر لضيفاتهم، كما تم الدعاء له حين عودة الوفد إلى اليمن في الحديدة وصنعاء بعد إبلاغ المسؤولين والأهالي بسلام السلطان ومضمون خطابه، ويمكن القول إن مسألة الدعاء تعكس تشكل لحظة مهمة في تاريخ العلاقات اليمنية العثمانية، تتجلى في مواقف وفد أعيان اليمن ونظرة إلى الدولة العثمانية كدولة منافعة عن الإسلام، وهو موقف فرضه الانتماء إلى دار الإسلام، وتجسد في حرص أعضاء الوفد على الإشادة بالسلطان العثماني والدعاء له، بغض النظر عن طبيعة العلاقات السياسية بين السلاطين العثمانيين والأئمة الزيدية، فضلاً عن طبيعة تشكيلة الوفد التي كان أغلبها من مناطق سيطرة العثمانيين في اليمن وموظفين لدى العثمانيين، والتأثير الإيجابي للإكراميات والنياشين والميداليات والمناصب التي حصل عليها أعضاء الوفد من قبل العثمانيين من بداية رحلة الوفد وأثناء إقامتهم في استنبول وقبيل مغادرتها. انظر: غرمضان، م.س، ص 34، 59-65؛ الغساني، م.س، ص 24؛ الشرقي، م.س، ج 1، ص 90.

⁹⁷ هو عبد الرحمن بن علي بن ناجي الحداد مفتي إب، توفي سنة 1340هـ/1922م، وتذكر بنت السلطان عبد الحميد أن أعضاء الوفد صاحوا جميعاً "الله ينصر السلطان". انظر: غرمضان، م.س، ص 59؛ زيارة، نزهة... م.س، ص 347؛ عائشة أوغلي، م.س، ص 81.

⁹⁸ غرمضان، م.س، ص 59. تقول ابنة السلطان عبد الحميد إن أعضاء الوفد "انكفأوا على يدي والدي وقدميه". انظر: عائشة أوغلي، م.س، ص 81. انفرد أحد المؤرخين اليمنيين المعاصرين لغرمضان (والمناحزين لموقف الإمام) بالإشارة - ضمن رصده لحوادث سنة 1326هـ/1908م بخلاف صاحب الرحلة نفسه والوثائق العثمانية المدعمة له التي أوردت الحدث إبان سنة 1325هـ/1907 - إلى انقسام أعضاء وفد أعيان اليمن حين مقابلتهم السلطان إلى قسمين الأول، ركز على المصالح العامة المتعلقة بقضية اليمن والثاني، اهتم بمصالحه الخاصة، لكنه يعود في آخر النص ليقر بأن الجميع انشغلوا بمطالبهم الخاصة وأنه بعد

الإقامة في مضمار الشروع برحلة العودة إلى اليمن في يوم المقابلة نفسها الخميس 7 جمادي الآخرة 1325 هـ/18 يوليو 1907 م⁹⁹، والتوجه مع الفريق المخصص لتوديعهم فوق العربيات إلى ميناء اسطنبول ومن ثم ركوب البابور¹⁰⁰ صوب مرسى أزمير، وبعد توقف قرابة 12 يوم هناك، انطلق باتجاه بور سعيد والسويس ووصل ميناء الحديد السبت 23 جمادي الآخرة 1325 هـ/أغسطس 1907 م ومنها توزع أعضاء الوفد إلى مناطقهم، حيث عاد غرمضان ومن معه إلى صنعاء الأحد 9 رجب 1325 هـ/18 أغسطس 1907 م¹⁰¹.

2-2 المشاهدات الاجتماعية:

أثارت اهتمام غرمضان وانتباهه في استانبول مواضيع وأحداث اجتماعية مختلفة تعكس مشاهداته اليومية في عاصمة الدولة العثمانية بحيث أفرد لها مساحة كبيرة في رحلته، ويمكن لنا حصر أبرزها على النحو الآتي:

- الإثنيات

من بين الموضوعات المهمة التي اهتم بها غرمضان الإشارة إلى التعدد الإثني الذي شاهد نموذجين عنه، الأول في رحلة القدوم إلى "دار السعادة" وتحديدًا في القلعة السلطانية جناق قلعة، التي تستقطب عددًا من اليهود، حين صعد إلى البابور المقل للوفد "ناس تجار من اليهود للبيع والشراء"¹⁰²، والنموذج الثاني خلال رحلة المغادرة في مدينة أزمير التي يقطنها "مسلمين ونصارى ويهود"¹⁰³.

شهر من بقاء أعضاء الوفد في استنبول: "وصلوا إلى السلطان للسلام وإجراء الكلام قدر عشر دقائق، فصاروا قسمين: قسم يريد الصلاح والسداد عامة، وقسم يريد إصلاح نفسه وتقرير معاش أو وظيفة، فسألهم السلطان عن ما يصلح اليمن ويزيل ما يحصل من الفتن، فأجاب البعض يصلحه القوة الجبرية وكثرة العساكر والجنود، والآخر وهم الأكثر يصلحه إجراء الشرائع والأحكام وإقامة الحدود التي قام بها الإسلام، وهي التي يطلبها أئمة اليمن خلفاً عن سلف، ثم تكلموا جميعاً في مصالح أنفسهم من المعاش والوظائف، ولم يحافظوا على الأدب في ذلك المقام، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، ثم صرفهم في الحال وأمر بتسفيرهم ولم يبيتوا إلا في الباخرة، وعوملت أوراقهم وأعطى كل واحد بما يستحقه من الإحسان والوظيفة". انظر: الواسعي، م.س، ص 219، 220.

⁹⁹ حينما عاد الوفد إلى مقر الإقامة تبعهم أبو الهدى الصيادي وأملى عليهم "ورقة فيها جميع ما صدرت به الإرادة السنية من الإحسان إلى كل واحد" وطمأنهم بأن المطالب التي لم تذكر في الورقة لازالت في طور التجهيز وأنه سيصل "إلى كل أحد مطلوبة"، كما قدم في تلك الأثناء معاون الباش كاتب عزت باشا. انظر غرمضان، م.س، ص 59.

¹⁰⁰ تم توديعهم من قبل مير اللواء محمد باشا وياور آخر، ويذكر أن البابور "ثير من كان" كبير ومجهز بالآلة الهائلة وفيه فريق من القادة والمعاونين العثمانيين الذين سافروا مع الوفد من ميناء اسطنبول إلى ميناء أزمير وهناك انتظروا استكمال تجهيز القوات العثمانية التي أرسلت بالمركب إلى اليمن بعدد ألف وخمسمائة جندي، في مؤشر على فشل مهمة الوفد بحل قضية اليمن وقرار الاستمرار في الحرب المتخذ من قبل القيادة العثمانية. للمزيد انظر: غرمضان، م.س، ص 59-65؛ الشرقي، م.س، ص 92، 93.

¹⁰¹ غرمضان، م.س، ص 60-65.

¹⁰² المصدر نفسه، ص 33.

¹⁰³ المصدر نفسه، ص 61.

- المرأة التركية وطبيعة عملها

كان للنساء التركيات خلال هذه المرحلة حضور مهم في الحياة اليومية للمجتمع العثماني، من خلال المشاركة في بعض الأنشطة الحرفية والمهنية، خاصة تلك التي تتقنها المرأة العثمانية مثل صناعة السجاد، حيث ذكر غرمضان مشاهدته في أحد فابريقات¹⁰⁴ الصنائع الخاصة بعمل "المفارش نحو خمسمائة من البنات كبار وصغار يشتغلن المفارش الأنبيقات"¹⁰⁵، وهي صورة قد تعكس لنا أيضاً واقعاً اجتماعياً صعباً كان يضطر المرأة للكسب والعمل حتى وإن كانت صغيرة السن، بجانب التخصص المهني الذي تتقنه المرأة العثمانية وتتميز به عن الرجل.

- العادات والتقاليد

رغم غنى الموروث الاجتماعي العثماني بعادات وتقاليد متنوعة في مناسبات متعددة، إلا أننا نجد اقتصار غرمضان على إشارات مقتضبة فقط¹⁰⁶ عن بعض العادات الغذائية المتعلقة بإكرام الضيوف والمأكولات والمشروبات المقدمة لهم في الوجبات والاستراحات وكذا الهدايا الإكرامية، كما هو الشأن حين تم تقديم "أنواع الفواكه والحنيذ" في وجبة الغداء ثم "القهوة والشراب" في فترة الاستراحة لوفد أعيان اليمن عند زيارته مدينة حركة¹⁰⁷ ومعاملها، وإكرامهم بطاقة حرير (لفة قماش) لكل واحد منهم من منتجات المعامل، وتكرر الأمر بعد

¹⁰⁴ فابريقات: هي المعامل التي تحتوي على آلات النسيج الخاصة بالسجاد والأقمشة التي كانت في تلك المرحلة تختص بها مدينة حركة. انظر: أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف وتقديم)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، ترجمة صالح السعداوي، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1999م، ص 733، 736.

¹⁰⁵ ذكر غرمضان أثناء زيارته وبقية الوفد اليمني إلى مدينة حركة - بعد مشاهدتهم لمعمل صناعة المفارش/السجاد- أنهم دخلوا معمل الأقمشة لكنه لم يحدد من الذي يصنعها وما إن كن نسوة كتلك التي في معمل السجاد. انظر: غرمضان، م.س، ص 39.

¹⁰⁶ هناك مناسبات دينية مرتبطة بزمان معين في العيدين ومناسبات احتفالية دينية في المولد النبوي وليلة النصف من شعبان وهو ما لم يتمكن غرمضان من رصده، وهناك مناسبات أخرى ليست مرتبطة بزمان محدد خاصة في الأفراح كالأعراس والختان والمآتم وهو ما لم يتمكن من رصده ويبدو أن عوامل عدة قد تسهم في تفسير ذلك مثل تاريخ ومدة زيارة الوفد لإسطنبول حيث كان في غير وقت تلك المناسبات الدينية، وتحكم حاشية السلطان ببرنامج الوفد وأماكن الزيارة وإضفاء الطابع الرسمي على البرنامج وعدم تمكنهم من الانغماس في المجتمع العثماني في اسطنبول وحضور مناسباتهم. للمزيد عن تلك المناسبات في المجتمع العثماني للمزيد. انظر: أوغلي، م.س، ج1، ص 589-596.

¹⁰⁷ حركة: مدينة تركية بالقرب من إسطنبول أمر السلطان عبد المجيد سنة 1843م بإقامة معامل للنسيج فيها وحيث عملت في البداية على إنتاج السجاد ثم شرعت في نسج الأقمشة، ويتم فيها استخدام الأنوال اليدوية لإنجاز أجود أنواع الأقمشة والسجاد على الطراز الكلاسيكي والركوكو. انظر: أوغلي، م.س، ج2، ص 733، 736.

زيارة مستشفى الأطفال حيث "استرحنا وأكرمونا بالقهوة والشرابات(المشروبات)، وأعطوا لكل واحد منا قارورة من ماء المعدن"¹⁰⁸.

— الأماكن المرتبطة بالمجتمع وخدماته.

يتعلق الأمر هنا بتلك الأماكن والمعالم والمؤسسات والمراكز المرتبطة بالنواحي التاريخية والدينية والصحية والترفيهية، فخلال مدة تقدر بخمسة وثلاثين يوماً قضاها غمضان في اسطنبول زار معظم جوامع المدينة بالإضافة إلى الأضرحة المرتبطة بها أو خارجها فضلاً عن المتاحف والحدائق والبساتين، وقدم لنا وصفاً دقيقاً لأغلبها بانبهار وإعجاب، ولم يفته الإشارة إلى زمن تلك الزيارات باليوم والتاريخ ما جعل منه إثنوغرافياً ومؤرخاً في آن. كانت أول زيارة قام بها غمضان ووفد أعيان اليمن- بعد وصولهم اسطنبول- إلى الجامع الحميدي لأداء "صلاة الجمعة في حضور مولانا السلطان الأعظم"، لكن دون أن يقدم أي وصف للجامع¹⁰⁹، وبعد الصلاة توجهوا إلى جامع السلطان أحمد¹¹⁰ "للتفرج" دون تقديم وصف عنه أيضاً¹¹¹، ثم أشار غمضان إلى زيارة قبر أبي أيوب الأنصاري¹¹² رضي الله عنه "في طرف مدينة استانبول من الجهة الغربية"¹¹³، كما زار جامع السلطان

¹⁰⁸ غمضان، م.س، ص 39، 41.

¹⁰⁹ تمت الزيارة بتاريخ 3 جمادي الأول 1325هـ/14 يونيو 1907م بغرض أداء صلاة الجمعة بتوجيه رسمي حيث يصلي السلطان العثماني عبد الحميد الثاني كل جمعة، وقد عبر غمضان عن ذلك بقوله "...صدرت الإرادة بأن نصلي صلاة الجمعة في الجامع الحميدي في حضور مولانا السلطان الأعظم". انظر: غمضان، م.س، ص 35-62.

¹¹⁰ جامع السلطان أحمد: أو الجامع الأزرق، من النماذج المعمارية المهمة التي بنيت بأسلوب المعماري سنان في اسطنبول، يقع أمام جامع أيا صوفيا مرتفعاً بمآذنه الست وقيته الضخمة التي يحيط بها نصفاً قبة أصغر حجماً، أمر ببنائه السلطان أحمد(الأول 1590-1617م) وقد اكتمل بناؤه سنة 1617م، سمي بالجامع الأزرق لأن جدرانه الداخلية مغطاة ببلاطات خزفية ملونة بالأزرق القاتم والفاتح وبأشكال هندسية ونباتية رائعة من أعمال المعمار الفنان الصداق محمد آغا. انظر: محمود زين العابدين، عمارة المساجد العثمانية، ط1، دار قابس، بيروت، 2006م، ص 61-65.

¹¹¹ اكتفى غمضان بالتأكيد على إضفاء الطابع الرسمي للمحطة الثانية من مشاهداته بقوله: "وبعد أداء الصلاة ورجوع حضرة السلطان إلى سرايته الملوكانية والتفرج على العساكر الشاهنامية والخيول الكثيرة، أمر حضرته بركوبنا فوق العربات وعزمنا للتفرج على جامع السلطان أحمد ورجعنا إلى دار الضيافة". انظر: غمضان، م.س، ص 35.

¹¹² قبر أبي أيوب الأنصاري: أبي أيوب هو أحد صحابة الرسول(ص) ومضيفه عندما هاجر من مكة إلى المدينة، توفي في إحدى عمليات الفتوح بالقرب من أسوار القسطنطينية سنة 50هـ/670م في عهد يزيد بن معاوية، اكتشف قبره في القرن الرابع عشر، وشيد ضريح وجامع حوالي 1456-1457م على عهد السلطان محمد الفاتح، وأصبح منذ ذلك الحين سيد وولي اسطنبول المسلمة، ومنذ اكتشافه ظل قبره محجاً لكل الأتراك بل ساد اعتقاد في أن الحج لا يكتمل إلا بزيارة قبر هذا الصحابي، وكانت زيارة قبر أبي أيوب سلطان كما سماه الأتراك من بين الإجراءات المهمة التي يقوم بها السلاطين العثمانيون عند تولي عرش السلطنة، بحيث تعد إحدى الأدوات التي يسخرونها للحصول على شعبية أكثر، ومنهم من حرص على زيارته في كل سنة وعند القيام بحملات عسكرية كما هو الشأن مع السلطان سليمان القانوني بالنسبة لحملة بلغراد 1521م وحملة موهاكس سنة 1526م. انظر: بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص 90-94.

¹¹³ كانت في يوم الأحد 5 جمادي الأول 1325هـ/16 يونيو 1907م، وقد استمر غمضان في إضفاء الطابع الرسمي على الزيارة بجانب إظهارها كاستجابة لرغبات الوفد؛ حين ذكر أنه وصل إلى دار الضيافة "الفريقان ثابت باشا وهادي باشا وبلغونا السلام وقالوا إن حضرة السلطان الأعظم أمر بأن يعزموا بنا للتفرج

محمد الفاتح¹¹⁴ وشاهد قبر السلطان "خارج الجامع في وسط قبة مزخرفة بأنواع العجائب... وشاهدنا من بنائها وزخرفتها ما يبهر العقول"¹¹⁵، وفي زيارة غرمضان وأعضاء الوفد إلى مدينة هرقة ذكر أنهم صلوا "الظهر والعصر في جامع ظريف مزخرف"¹¹⁶، دون أن يشير إلى تسميته.

وفي السياق ذاته، زار غرمضان ووفد أعيان اليمن جامع السلطان سليم الأول¹¹⁷ ووصفه بـ"الجامع المفتخر المزين بأنواع النقوشات" وذكر أنهم رأوا فيه "المصاحف العظيمة المكتوبة بالذهب واللازورد، ومن جملتها ورقة فيها جميع القرآن"، ثم ذكر بأنهم خرجوا من الجامع "إلى قبة صغيرة فيها قبر السلطان عبد المجيد وابنه" وأنه تم نقلهم بعد ذلك "إلى قبة أخرى فيها قبر السلطان سليم فاتح مصر، وشاهدنا فيها مصاحف كبيرة فوق الكراسي مكتوبة بالذهب مطرزة باللازورد"، مختتماً مشاهداته بالتعبير عن دهشته بعبارة "وجملة أنها تبهر العقول"¹¹⁸.

وبجانب ذلك تمت زيارة جامع السلطان سليمان القانوني¹¹⁹ في اسطنبول ووصفه بأنه "من أحسن الجوامع مزخرفة بأنواع الزينة والنقوشات"، ثم قدم لنا وصفاً عن مشاهداته لضريح السلطان سليمان القانوني بقوله:

وزيارة المقامات الشريفة أينما نريد، فقلنا مرادنا زيارة مشهد أبي أيوب الأنصاري ورؤية أيا صوفيا وغير ذلك فأمرنا بعزما فوق العربيات لزيارة قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فعزما إلى هناك "وهو ما يبين الاستمرار في عدم تسجيل أي وصف للمحطة الثالثة من مشاهداته أو للطريق الذي سلكه إلى هناك باستثناء إشارته للموقع المكاني. انظر: غرمضان، م.س، ص 35.

¹¹⁴ **جامع السلطان محمد الفاتح**: شيد بأمر السلطان محمد (الثاني) الفاتح (1451-1481م) الذي يستحق أن يحمل لقب القانوني للنشاط التشريعي المكثف الذي عرفه عهده، وهو أول جامع يقام في استنبول سنة 1463م ضمن مجمع الفاتح، تهدمت قبته إثر زلزال شديد سنة 1765م فقام السلطان مصطفى الثالث بتشييد قبة جديدة وفق مخطط مختلف، تم بناؤه مكان كنيسة الحواريين (سانت بطرس). انظر: زين العابدين، م.س، ص 41-43؛ بنحادة، **العثمانيون...**، م.س، ص 298، 299؛ محمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، ط 1، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994م، ص 51.

¹¹⁵ كان ذلك يوم الثلاثاء 7 جمادي الأولى 1325هـ/18 يونيو 1907م وقد ذكر غرمضان أن "السلطان أحمد والسلطان إبراهيم" مدفونان جوار السلطان الفاتح. انظر: غرمضان، م.س، ص 37.

¹¹⁶ يوم السبت 11 جمادي الأولى 1325هـ/22 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 39.

¹¹⁷ **جامع السلطان سليم الأول**: نسبة إلى السلطان سليم الأول (1512-1520م) الملقب بـ"ياووز" أي القاسي أو الرهيب، وهو أول من حمل لقب خادم الحرمين الشريفين باعتباره فاتح مصر، يعد ثاني أقدم مسجد عثماني في استنبول، بني بأمر من السلطان سليمان القانوني إحياءً للذكرى والده السلطان سليم الأول على قمة هضبة في اسطنبول ويطل على القرن الذهبي، ويعتقد أن المعمار سنان شارك في البناء الذي خلص منه سنة 1527م. انظر: بنحادة، **العثمانيون...**، م.س، ص 294، 295؛ حرب، م.س، ص 157-159.

¹¹⁸ كانت الزيارة يوم الجمعة 17 جمادي الأولى 1325هـ/28 يونيو 1907م، وقد ورد عند غرمضان باسم "جامع السلطان سليمان رحمه الله" ويغلب ظننا على أنه خطأ وقع فيه ناسخ المخطوط كما لم ينتبه له من حققها أيضاً؛ كون غرمضان قد ذكر مشاهداته لجامع السلطان سليمان بعد ذلك، فضلاً عن أنه أورد الشواهد الوصفية المؤيدة بأنه يقصد جامع السلطان سليم الأول الذي بناه ابنه السلطان سليمان القانوني. انظر: غرمضان، م.س، ص 44 (النسخة المحققة من قبل الحبشي ودياب) ثم قارن مع النسخة التي حققها الثور ص 66، 67.

¹¹⁹ **جامع السلطان سليمان القانوني**: أو السليمانية، نسبة إلى السلطان سليمان (الثاني) (1520-1666م) الذي لقب بالقانوني عن جدارة واستحقاق لإصداره عدد كبير من القوانين، تميز عهده بحركة عمرانية منقطعة النظير؛ بفضل أحد مهندسيه ومعمارييه (المعمار سنان) الذي قام ببناء عدد من المنشآت الدينية والاقتصادية أبرزها جامع السليمانية بين سنتي 1550-1557م على ربوة تتحكم بالخليج الذهبي والبسفور، يعد من أشهر المعالم العمرانية في عهد السلطان

"ونقلنا إلى القبة المدفون فيها وزرنا قبره، وهذه القبة مزخرفة جميع حيطانها وفيها كثير من المصاحف المنقوشة بالذهب التي بعضها يشابه أحسن مصاحف جامع صنعاء"¹²⁰، وهو هنا يمارس الذاتية أو الاعتزاز بالذات بحضور صورة المقارنة والتشبيه مع أحد جوامع بلده، ويواصل غمضان وصف مشاهداته لجامع السلطان سليمان وانبهاره بذلك ويستخدم المقارنة أيضاً بالمجال الإسلامي الموحد بقوله: "وفي جانب القبة صورة الحرم المكي والحرم المدني من الخشب أو الطين بغاية الإحكام، حتى أن من قد عرف الحرمين لا يقول إلا أن تلك الكعبة الشريفة وما حولها من المقامات وزمزم وكذلك قبر سيد الكونين (صلى الله عليه وسلم) وما فيه من المنارات وغيرها وكأنه هو"¹²¹.

وفيما يتعلق بالمتاحف، فقد زار غمضان ووفد أعيان اليمن بعض منها وفي مقدمتها "دار المصورين" حيث وصف مكوناتها ومحتوياتها واعتبرها من "العجائب التي تهيل العقول"¹²²، كما زار متحف طوب كابي سراي¹²³ الذي بناه السلطان محمد الفاتح، ومتحف الآثار¹²⁴، وقد توسع غمضان في وصف محتوياتهما ومكوناتهما بشكل دقيق، حيث قدم في البداية ملخصاً عاماً عن تلك المحتويات بقوله إنها تتضمن "الأشياء العتيقة من المصورات والمصنوعات"¹²⁵، وأشار إلى الاحترام الذي لاقاه وفد اليمن من قبل المسؤولين عن

القانوني بل في التاريخ العثماني عامة. انظر: بنحادة، العثمانيون... م.س، ص 296، 297؛ حرب، العثمانيون... م.س، ص 159-165؛ زين العابدين، م.س، ص 52-57.

¹²⁰ تمت زيارة جامع السلطان سليمان يوم الأربعاء 22 جمادي الأولى 1325 هـ/3 يوليو 1907 م، ولعل غمضان يقصد الجامع الكبير بصنعاء. انظر: غمضان، م.س، ص 50.

¹²¹ غمضان، م.س، ص 100.

¹²² كانت الزيارة يوم الخميس 9 جمادي الأولى 1325 هـ/20 يونيو 1907 م، وقد ذكر غمضان أنه شاهد فيها "صور العساكر الإنجليز (يقصد بني تشيري أي الإنكشارية) الذي أفناهم السلطان محمود رحمه الله، فرأيناهم قائمين بذواتهم التي كأنهم على قيد الحياة باقية صورهم بدهان الزئبق (الزئبق) وكل ثلاثة أربعة مشغولين بما كانوا فيه أيام حياتهم، بعضهم ماسك السيف وبعضهم بالخنجر، وبعضهم يضرب بالآلات الملاحية". انظر: غمضان، م.س، ص 38.

¹²³ **طوب كابي سراي**: طوب كابي/طوب قابو، (السراي ذو الباب وذو المدافع)، أحد أشهر سرايات (قصور) السلاطين العثمانيين في اسطنبول، عبارة عن مجمع من السرايات المنفصلة كبيرة وصغيرة متناثرة داخل حديقة واسعة على مساحة سبعة كيلو متر مربع، استمر التشييد والتوسعة فيه من نهاية القرن الخامس عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر، بني في عهد السلطان محمد الفاتح، وكان المقر السياسي للسلطنة العثمانية لمدة 400 سنة، يقع فوق تلة تهيم على مضيق اسطنبول وبحر مرمرة والقرن الذهبي، وهو حالياً من أشهر المتاحف الأثرية في تركيا، يرتاده السياح ويطوفون أقسامه المتعددة ليهيئهم بكنوز من القطع النادرة في العالم التي تحفظ إعجاب من يشاهدها أيا كان مشربه الثقافي والديني. انظر: حلاق؛ صباغ، م.س، ص 148؛ دوغان، م.س، ص 29. للمزيد انظر: يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، ج 2، ط 1، مؤسسة فيصل للتمويل، 1990 م، ص 297-303.

¹²⁴ تمت الزيارة يوم الاثنين 20 جمادي الأولى 1325 هـ/1 يوليو 1907 م، حيث قال غمضان: "صدرت الإرادة السنية بعزمنا إلى الخزانة الخاصة التي فيها الأمانات والخرقة الشريفة وإلى الموزة الهمايونية". انظر: غمضان، م.س، ص 46.

¹²⁵ غمضان، م.س، ص 46.

المتحفين، وقدر العدد الإجمالي للعساكر المعنيين بالحراسة بحوالي "أربعمائة نفر لا يبرحون من هنالك أبداً"¹²⁶، ثم قدم وصفاً تفصيلياً عن مشاهداته في متحف طوب كابي وتنقله في أقسامه المتعددة وفي مقدمتها "مكان فيه جميع المجوهرات"¹²⁷، وآخر فيه "أنواع السلاح... وجميع السكة"¹²⁸، ومكان ثالث أثار تعجبه ولفت انتباهه يحتوي على مجسمات (منحوتة) للسلطين العثمانيين عبر عنه بقوله: "نقلنا إلى مكان وسيع فيه السلطين آل عثمان من أولهم إلى عند السلطان عبد المجيد"¹²⁹، ويواصل غرمضان تسجيل مشاهداته بقوله "ثم نقلنا إلى مكان آخر وفيه أنواع المجوهرات والأسلحة وغيرها وكلها معلقة، وفي جوانب هذا المكان صور جميع خلفاء بني العباس"¹³⁰، وقد اختتم¹³¹ وفد أعيان اليمن تلك الزيارة بمشاهدة المكتبة المشتملة على مخطوطات في عدد من العلوم أشار إليها غرمضان بقوله: "فدخلنا إلى قبة فيها جانبين عليهما الزجاج ومن داخل الزجاج جميع الكتب"¹³².

¹²⁶ وصف غرمضان مشهد الاستقبال بقوله: "فتلقانا حال وصولنا جميع الخدمية والمأمورين والأعوان وهم مصطفين بكمال الانتظام والسكون والاحترام، وهناك في الخزانة الخاصة والموزة الهمايونية مأمور المحافظة وهو الفريق رضا باشا وكتابه الذي عنده المفاتيح أدهم بك رجل شايب لطيف الطباع ظاهر عليه الصلاح". انظر: غرمضان، م.س، ص 46.

¹²⁷ كانت هذه المجوهرات تتكون من "الزمرد والبرجد والياقوت والمرجان واللؤلؤ شيء كثير، حتى من الجملة قطعة كبيرة زمرد قدر أوقيتين، وأينا الكرسي الذي غنمه السلطان مراد من ملك العجم مكلل بالدر والياقوت ومنقوش باللؤلؤ وغيره من الأفضاص الثمينة، وأينا كرسي السلطان أحمد كذلك مكلل بالدر والياقوت ومنقوش باللؤلؤ، وأصله هو الأول من الفضة الخالصة مطلي بالذهب وفوقه قطعة زمرد معلقة مثل الخيارة الكبيرة". انظر: غرمضان، م.س، ص 47.

¹²⁸ كانت الأسلحة المشاهدة مكونة "من البنادق والسيوف القديمة المكللة بالدر والياقوت والجواهر"، أما السكة (العملة) فكانت "من الذهب والفضة من أيام بني أمية إلى الآن، كلها مرصوفة في الصفوف المعدة لها داخل تحت على المرايا الزجاجي، بحيث يمكن قراءة ما عليها من نقش الكتابة، ومن أي ضربة وأي زمان من الأموية والعباسية وغيرهم من الدول الماضية وحتى من سكة السلطين آل عثمان المتقدمين والمتأخرين إلى الآن". انظر: غرمضان، م.س، ص 47.

¹²⁹ يقدم غرمضان وصفاً دقيقاً لمجسمات السلطين، ويتعجب من عدم تعفن مجسماتهم رغم معرفته بأنها منحوتة "وهم قائمين على هيئة الرجل القائم بأقدامه من غير تصوير لأوجاههم، ولكن كل واحد منهم لايس ملبوسه (ملابسه) التي لا توجد في زماننا، والعجب حيث أنها باقية إلى الآن لا تغيرت ولا عثنت (تعفنت)، وفي أوساطهم سكاكين مننطقين بها مرصعة بالماس والدر والياقوت وغيرها، وأصل هؤلاء السكاكين حليتهن من الذهب والفضة ومكلل بالدر والماس والياقوت وغيره من أنواع الزينة، من ابتداء السلطين إلى عند السلطان محمود وهم بالعمائم أما السلطان محمود ففوقه الطربوش لكن مركز فيه التاج على صفة من قبله من السلطين العظام". انظر: غرمضان، م.س، ص 48.

¹³⁰ رغم أن تلك الصور التي شاهدها غرمضان "منقوشة في الورق" لكنها أثارت إعجابه لدقتها في تجسيد صورة خلفاء بني العباس "كأنهم سينطقون وهم بهياتهم وألبستهم وعمائمهم من عند السفاح إلى آخرهم وأحسن من رأيت من الصور صورة المهدي فيه الجمال المفرط والوجه الصبيح". انظر: غرمضان، م.س، ص 48.

¹³¹ قبل الاختتام ذكر غرمضان أنهم توجهوا "إلى محل الخرقه الشريفة والأمانات" لكنهم لم يتمكنوا من مشاهدة محتوياتها لأن "وقت فتحها في 15 رجب". انظر: غرمضان، م.س، ص 48. حول جناح الأمانات المقدسة والخرقة الشريفة (في قصر طوب كابي) الخاص بمتعلقات النبي (صلى الله عليه وسلم) والكعبة المشرفة والخلفاء الراشدين انظر: أوزتونا، م.س، ج 2، ص 301، 302؛ صابان، م.س، ص 36، 97، 98.

¹³² كانت تلك الكتب "مرصوفة من القاع إلى السقف بحيث يقرأ الإنسان عنوان كل كتاب من كتب الفقه والحديث والنحو والتاريخ والتفسير وغير ذلك" ونستشف بأن غرمضان والوفد استفسروا القائمين على المكتبة عن ملكية تلك الكتب وكان الجواب أنهم "قالوا هذه كتب السلطين المتقدمين والمتأخرين" انظر: غرمضان، م.س، ص 48.

وبجانب ذلك سجل غرمضان انبهاره وهو يقدم وصفاً لمتحف الآثار والأقسام التي زارها فيه والمحتويات التي شاهدها هناك بقوله: "ثم نقلنا إلى دار طويلة عريضة فيها جميع الأشياء العتيقة من مصنوعات اليمن... وكذلك مصنوعات كل البلدان من جميع الأوعية والآلات التي لا تعد ولا تحصى"¹³³، وقسم آخر وصفه بأنه "طارود طويل وفيه صور مختلفة الأجناس وتماثيل"¹³⁴.

وفي السياق ذاته، قدم لنا غرمضان وصفاً لمشاهداته لبعض المؤسسات التي تقدم خدماتها للمجتمع العثماني في المجال الصحي، فقد زار خستخانة¹³⁵ الأطفال وأثنى على الحفاوة التي استقبل بها ودون إعجابه واستغرابه بخصوص الأجهزة الطبية التي شاهدها فيه حيث يقول: "عزمنا إلى خستخانة الأطفال، وتلقانا جميع الحكماء والأطباء فيها بالترحيب والإكرام وفرجوناً على آلاتها، وعجائبها الغريبة التي من جملتها ماكنة تكشف حقيقة داخل الإنسان بجميع ما في وسطه من العظام والعروق وغيرها"¹³⁶.

ومن المشاهدات التي دونها غرمضان في المجال الاجتماعي، وصفه لبعض الأماكن التي تتعلق بالحياة الاجتماعية العثمانية في الجانب الترفيهي كالبساتين والحدائق الجميلة وبالذات تلك الخاصة بالقصور (السرايات) السلطانية (أي مجتمع النخبة الحاكمة) مثل "بستان طلعة بغجة"¹³⁷، لكن دون أن يقدم وصفاً لمحتوياته، منشغلاً عنه بوصف السراي¹³⁸ كما يبدو، وبجانب ذلك فقد زار غرمضان "بستان الوزير عثمان باشا جوار دار الضيافة للتنزه"، ودون إعجابه بذلك "فأرأينا بستاناً أنيقاً فيه الأشجار المنتظمة والأنهار لكنها للنظر فقط أكثرها غير

¹³³ ذكر غرمضان أنه شاهد آثار يمنية قديمة وحديثة من عهد "حمير ومن بعدهم إلى الآن من المصنوعات القديمة والأخيرة، من كل ما صنعه الأيدي والاختراعات حتى من الجملة رأينا مواقد (مواقد) وجفین (جفان) مدر (قطع طين يابس) وشمیل (بساط صوف خشن الملمس) وغيرها من مصنوعات اليمن، ومن آلات الزراعة كالشریم (المنجل) والحلي ونحوهما ولعلها التي أرسلها حسين حلمي باشا". انظر: غرمضان، م.س، ص 49.

¹³⁴ فصل غرمضان في مشاهداته لهذا القسم وذكر بأن بعض هذه التماثيل مركوزة (أي واقفة) وبعضها ممددة (أي ملقاة على الأرض) مصنوعة من الأحجار البلق والرخام وغيرها من صور ملوك حمير (آثار حميرية يمنية قديمة) والأعاجم والأتراك والإفرنج، وحتى رأينا تابوت الإسكندر وهو عليه حجر ممدود كأنه سينطق من أحكام صنعة نحت، وحوله تصاوير تماثيل قائمة الذات صغار كالنساء والأطفال والحيوانات" انظر: غرمضان، م.س، ص 49، 50.

¹³⁵ خستخانة: لفظ فارسي معناه: مشفى، شاع استعماله في البلاد العربية منذ بداية العهد العثماني. انظر: الخطيب، م.س. ص 162.

¹³⁶ يوم الأربعاء 15 جمادي الأولى غرمضان، م.س، ص 41.

¹³⁷ طلعة بغجة: دولمة بقجه/بخجه/بهبجة: الحديقة المردومة أو المحشية، كانت أرضه قطعة من المضيق ثم ردمت بأمر السلطان أحمد الأول م 1614 واستمر الردم حتى 1620م ثم شيد عثمان الثاني فيه حديقة تحتوي على قصر ثم شيد مكانه السلطان محمود الثاني سراياً حشيباً سكن فيه معظم وقته ثم هدمه ابنه السلطان عبد المجيد وشيد مكانه السراي الحجري العظيم الحالي بناه له باليان عام 1853م، وسمي بهذا الاسم لأن الأرض التي شيد عليها القصر تم ردمها لوقوعها على شاطئ البوسفور، مساحته حوالي خمسة كيلو متر مربع، يعد حالياً من أشهر القصور السياحية لاتسامه بالضخامة وجمال المباني، وقد زاره غرمضان يوم الاثنين 13 جمادي الأولى 1325/24 يونيو 1907م. انظر: صابان، م.س، ص 181؛ غرمضان، م.س، ص 40، أوزتونا، م.س، ج 2، ص 305-308.

¹³⁸ السراي: السرايا، كلمة فارسية الأصل تعني المنزل أو القصر، وتعني في الاستعمال العثماني مجموعة المباني المشيدة في القصر الإمبراطوري من بلاط ومنازل لأعضاء الأسرة المالكة وموظفي شؤون القصر. انظر: صابان، م.س، ص 133؛ عامر، م.س، ص 374.

مثمرة، وفيه الأزهار الطيبة وفي وسطه مواجل للماء، وأيضاً بداخله أمكنة ظريفة البناء مزوقة أنيقة، ومن الجملة موضع جداراته وسقفه من الزجاج، وداخله أشجار يابسة فسألنا عنها فقال: البخشوان إن هذه الأشجار اليابسة تخضر في أيام الشتاء، ورأينا بعضها في أوائل الاخضرار وهذا من العجائب"¹³⁹.

كما دون غرمضان مشاهداته لبستان السرايا الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني معتبراً أن صدور الأوامر السلطانية بالسماح لهم بزيارته تعد مكرمة خاصة بالوفد وتدل على ما يحظى به من مكانة "ولما ركبنا العربيات ووصلنا إلى السوق وإذا قد أقبل خيال يركض وقال: إن حضرة أفندينا أمر بإرجاعنا إلى بستان سراياه الخاص للتفرج فيه، فرجعنا ودخلناه... وبالجملة فإن هذا البستان لا يدخله أحداً ولكن إكراماً لنا من حضرته العلية"¹⁴⁰ ويقدم لنا غرمضان بانهار وصفاً دقيقاً لمحتويات البستان وما شاهده فيه "من جنان الدنيا" من أشجار ومياه وطيور وحيوانات¹⁴¹، مؤكداً أنه يتميز عن بقية البساتين التي شاهدها بكبر مساحته وحسن تنظيمه وتخطيطه "وأما اتساعه فلم رأينا (نرى) آخره، ولكن درنا فيه فوق العربيات مع استقامة طرقاته وانتظامها والأشجار مظلة فوقها من جميع الجهات"¹⁴²،

وبالإضافة إلى ذلك، سجل غرمضان مشاهداته لتلك البساتين التي تقع على جوانب الطرقات بين اسطنبول وبعض المدن التركية وبالتحديد مدينة حركة "وهذه البساتين تسمى الصيفية" وتحتوي على "الأشجار والأعشاب من كل نوع"، وكذا أشار إلى مشاهدته بستان داخل مدينة حركة بقوله: "...دخلنا بستان ظريف قد أعدوا لنا فيه الغداء من أنواع الفواكه والحنيد، فأكلنا واسترحنا"¹⁴³.

ولم يفت غرمضان تقديم وصف لمشاهداته لبعض القصور السلطانية (أو قصور النخبة) معبراً عن انبهاره بما شاهده فيها من الفخامة؛ سيما وأنها مقررًا للسلطة العثمانية الحاكمة، فعلاوةً على وصف دار الضيافة التي سبق تناولها، قدم وصفاً لسراي دولمة بهجة وذكر أنهم رأوا فيها "أنواع العجائب من المفروشات وحتى أن جميع آلاتها

¹³⁹ يوم الخميس 16 جمادي الأولى 1325هـ/27 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 41.

¹⁴⁰ كانت الزيارة بعد أداء الوفد صلاة الجمعة بالجامع الحميدي بتاريخ 24 جمادي الأولى 1325هـ/5 يوليو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 51.

¹⁴¹ وصف غرمضان ذلك (بنوع من المبالغة) بقوله: "فرأينا الأشجار ملتفة به من كل جانب، والبرك الكبار ملانة بالماء، والطيور في الأشجار تسبح الملك الغفار، ورأينا فيه الحيوانات المختلفة الألوان من جملة النعام والكركن (الكركن) في رأس كل واحد نحو عشرة قرون. والكركن وهو يشبه البقر، ورأينا الظبي والغنم ألوان وأشكال، وكذلك جمال الحبشة البخت التي لها سنامين، ورأينا البقر الكبار في وسط صبل (اسطبل) كبير، البقرة لو تذبح لا يخرج منها ألف رطل لحم من عظم جنتها، ومحلبها مثل الخيارية الكبرى". انظر: غرمضان، م.س، ص 51.

¹⁴² المصدر نفسه، ص 51، 52.

¹⁴³ كانت الزيارة يوم السبت 11 جمادي الأولى 1325هـ/22 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 39.

وقناديلها من البلور والفضة، ورأينا جميع المصورات في جدرانها مطلية بالذهب من الحيوانات والأودام وفيها صورة السلطان عبد العزيز راكب على فرس، وصورة السلطان عبد الحميد، وبالجملة فإنها مما تبهر لرؤيتها العقول¹⁴⁴ مؤكداً أن أكثر ما لفت انتباهه الشاذرون¹⁴⁵ التي في ساحته مقدماً وصفاً لها مع الاستفسار عن كيفية صنعها محاولاً تقديم إجابات اجتهدانية لذلك "حتى من الجملة رأينا في سوحها شذروانة يطلع في الهواء مقدار الصومعة وينزل مائه كأنه اللؤلؤ بكمال الأحكام والانتظام، ولا ندري كيف صنعه، ولعله بالمكينات والآلات المحكمة"¹⁴⁶. ورصد غمضان مشاهداته أثناء الجولة البحرية في البوغاز¹⁴⁷ لبعض قصور النخبة المتواجدة في الجانب الأيمن منه فيقول "ورأينا سرايا خديوي مصر عباس حلمي التي هناك بغاية الانتظام، وسبعة جداً، مزخرف خارجها فكيف داخلها"، وفضلاً عن الإشارة إلى رؤيته من فوق المركب البحري في الجانب الأيسر من البوغاز "سرايا السلطان يلدز" الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، وسرايا بعض كبار رجال دولته كالسر عسكر¹⁴⁸ وغيره لكن دون تقديم وصف لها من الخارج¹⁴⁹.

وبمقابل الحديث عن قصور النخبة الحاكمة، سجل نصوص وصفية مقتضبة عن منازل وبيوت عامة المجتمع العثماني أثناء الجولة البحرية في البوغاز سواء في جانبه الأيمن حين شاهد من الخارج "البيوت المنتظمة صغاراً وكباراً وحولها وفوقها إلى أعلى الجبل والأشجار الملتفة بعضها ببعض"¹⁵⁰، أو في جانبه الأيسر بما فيه "من الأبنية والبيوت المنتظمة غاية الانتظام"¹⁵¹، وقبل ذلك كان قد قدم وصفاً للبيوت التي رآها من الخارج أثناء السير بالقطار على طول الطريق بين استانبول وهركة حيث شاهد "البيوت والعمائر الأنيقة"¹⁵².

¹⁴⁴ غمضان، م.س، ص 40.

¹⁴⁵ الشاذرون: الشاذرون، آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل، وهي عبارة عن ألواح خشبية قوية يوضع خلفها أعمدة متينة لتثبيتها، فيرتفع مستوى المياه في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة، وهو أيضاً مكان الضوء يتوسط صحن الجامع ويسمى عند النافورة أيضاً. انظر: دهمان، م.س، ص 95؛ زين العابدين، م.س، ص 128.

¹⁴⁶ غمضان، م.س، ص 40.

¹⁴⁷ البوغاز: لفظة تركية تعني جزء من الماء محصور بين برين وموصل بين بحرين، ويطلق على الحلقوم وهو بمعنى المضيق مثل بوغاز البوسفور. انظر: دهمان، م.س، ص 35.

¹⁴⁸ سر عسكر: قائد الجيش وكانت تطلق غالباً على الوزير العثماني الذي يرأس حملة عسكرية، وقد استبدل هذا اللقب في نهاية القرن التاسع عشر بلقب "حربية ناظري". انظر: بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص 331.

¹⁴⁹ كانت الزيارة يوم السبت 25 جمادي الأولى 1325 هـ/6 يوليو 1907م، والقسم الأيمن من البوغاز أي القسم الأسيوي (أناضولي أو الأناضول) والقسم الأيسر هو القسم الأوربي المسمى الروملي (روم إيلي عند غمضان). انظر: غمضان، م.س، ص 52، 53.

¹⁵⁰ غمضان، م.س، ص 52.

¹⁵¹ المصدر نفسه، ص 53.

¹⁵² المصدر نفسه، ص 39.

2-3 المشاهدات الاقتصادية :

تتوزع مشاهدات غرمضان في المجال الاقتصادي على عدد من الجوانب كما يأتي:

- مشاهدات في الجانب التجاري

تطرق غرمضان إلى حركة البيع والشراء لعدد من السلع والبضائع المعروضة في الأسواق التجارية في بعض المدن العثمانية وجنسيات التجار المشتغلين بها، فذكر أن "بعض الرفقاء اشتروا قماشات وأجواخ¹⁵³ ونحو ذلك... حين وصل إلينا ناس تجار من اليهود للبيع والشراء"¹⁵⁴ أثناء توقف المركب المقل للوفد في جناق قلعة قبيل التوجه إلى اسطنبول، وحين زيارة مدينة حركة التي تشتهر بمعامل صناعة السجاد أو المفروشات التي وصفها "بالأنيقات" حيث "اشترى بعض أصحابنا من مفارشها"¹⁵⁵، كما أشار إلى خروج بعض أعضاء الوفد إلى السوق يومين متتاليين لشراء بعض السلع قبيل مغادرتهم اسطنبول إلى اليمن¹⁵⁶، دون الإشارة إلى أسماء الأسواق والسلع وأسعارها ونوع العملة.

- مشاهدات في الجانب الصناعي

دون غرمضان مشاهداته في هذا المجال من حيث المعامل الصناعية(المصانع) كمعامل أو مصانع السجاد والأقمشة والأجواخ والطرايش¹⁵⁷ والمصنوعات التي تنتجها وطريقة اشتغال آلاتها، بجانب وصف العمال

¹⁵³ أجواخ: مفردا جوخ، كلمة فارسية معربة، من الكلمات المشتركة بين الفارسية والتركية، والجوخة واحدة الجوخ، وهو نسيج صفيق من الصوف، وكان الجوخ أو المخمل المعروف في اللغة العثمانية بـ"جوخة" تستورد مادته من البندقية وفرنسا، وانتشرت محترفات نسيج هذه الأجواخ في مدينة سلانيك وتولاها اليهود الذين طردوا من الأندلس وقد استفادوا من الإعفاءات الضريبية منذ عهد السلطان بايزيد الثاني مقابل نسج الجوخ لعساكر الإنكشارية التي حين زاد عددها أصبح من الصعوبة تلبية حاجيات الدولة وأثر على جودة صناعتها، ومن ثم إغراض الجنود على استخدامه خلال القرن السابع عشر، وفي النصف الأول للقرن الثامن عشر عملت الدولة على إيجاد معامل لصناعة الأجواخ محلياً والحد من ارتباط هذه الحرفة بالخارج ومنها معمل اسطنبول الذي توقف سنة 1732م بسبب المنافسة الفرنسية في السوق العثمانية بأسعار أقل وجوده أحسن. انظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ط1، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، 2002م، ص119؛ بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص176، 177.

¹⁵⁴ غرمضان، م.س، ص33.

¹⁵⁵ المصدر نفسه، ص39.

¹⁵⁶ الخامس والسادس من جمادي الآخرة 1325هـ/16، 17 يوليو 1907م فقد خرج يوم الثلاثاء "بعض الرفقاء إلى السوق لشراء محتاجات" ويوم الأربعاء كذلك "خرج بعض الرفقاء مع بعض الخدمة إلى السوق لشراء محتاجات". انظر: غرمضان، م.س، ص56.

¹⁵⁷ طرايش: مفردا طربوش، كلمة فارسية معربة، أصلها في الفارسية سربوش، مركبة من سر بمعنى رأس وبوش بمعنى غطاء، والمعنى الإجمالي غطاء الرأس، والطربوش من ملابس الرأس التي شاع استعمالها مع بداية العصر الحديث، وقد أدت الإصلاحات العسكرية التي سنتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر إلى خلق دينامية صناعية جديدة تمثلت في فتح مصانع للاستجابة للحاجيات التي يتطلبها التحديث العسكري ومنها مصانع طرايش لتلبية احتياج العساكر المنصورية للطرايش في إطار القيافة الجديدة، حيث افتتحت الدولة معملين في اسطنبول واستمر الانتاج حتى تم منع استخدام الطربوش بمقتضى مرسوم جمهوري سنة 1925م. انظر: إبراهيم، م.س، ص299؛ بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص138، 139.

المشتغلين فيها والمدن الصناعية التي تحتوي على تلك المصانع، فضلاً عن عدد من الصناعات الحديثة، مدوناً إعجابه وانبهاره بذلك حيث قال: "أمر حضرة السلطان حفظه الله بعزمنا إلى حركة للتفرج على الفابريقات والصنائع التي فيها... ورأينا فابريقات الصنائع التي من جملتها الفابريقة حق عمل المفارش... ثم دخلنا معمل القماشات وغير ذلك مما يبهر العقول، وجميع تلك الفابريقات يمسكان الماء والنار"¹⁵⁸، وتحدث عن زيارة مكتب الصنائع والمصنوعات التي فيه بقوله: "عزمنا إلى مكتب الصنائع، فرأينا محلاتهم حيث هم مفسوحين ورأينا نحو مائتين يتك"¹⁵⁹ ورأينا مصنوعاتهم من التخت والكراسي حق الختم ونحو ذلك من الصنائع"¹⁶⁰، كما "عزمنا للتفرج على الفابريقات التي تشتغل الأجواخ والطرايش وسائر الصنائع، وذلك مما يذهل العقول من اتساع تلك الأماكن والفابريقات التي تحرك جميع الدواليب عجلة واحدة إما بالنار أو بالماء"¹⁶¹.

وبالإضافة إلى الصناعات التقليدية، تطرق غرمضان إلى عدد من الصناعات الحديثة والآلات التقدم سواء فيما يتعلق بوسائل المواصلات وفي مقدمتها الشمندوفر¹⁶² الذي وصف سرعته كالبرق الخاطف، وأنه يختصر المسافات بشكل كبير من ثلاث أيام بين اسطنبول وهركة في البر إلى ساعتين ونص¹⁶³ في الذهاب ومثله في الإياب، وتحدث عن البابور والمراكب البحرية والعربات البرية، أو فيما يخص الأجهزة والصناعات الطبية الحديثة حينما وصف جهاز الكشف الطبي الذي رآه في مستشفى الأطفال، فضلاً عن صناعات المياه المعدنية التي تضمنتها إشارته إلى قوارير المياه المعدنية التي قدمت لأعضاء الوفد الزائر للمستشفى¹⁶⁴.

- مشاهدات في الجانب الزراعي

هناك إشارات مقتضبة عن المشاهدات المرتبطة بالجانب الزراعي تتعلق ببعض المنتجات الزراعية والأشجار غير المثمرة واليابسة والأزهار والمياه، حيث شاهد غرمضان "أنواع الفواكه" التي قدمت لهم في وجبة الغداء بمدينة هركة، كما شاهد "الأشجار والأعنان من كل نوع" المنتشرة طوال الطريق من اسطنبول إلى هركة في "المحلات والبساتين تسمى الصيفية"¹⁶⁵، وكذا "الأشجار المنتظمة والأنهار لكنها للنظار فقط أكثرها غير مثمرة، والأزهار

¹⁵⁸ تمت الزيارة يوم السبت 11 جمادى الأولى 1325 هـ/22 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 39.

¹⁵⁹ يتك: يطلق، الفراش الغليظ، مصطلح كان يطلق في العهد العثماني للدلالة على فراش السجين. انظر: عباس؛ صباغ، م.س، ص 325.

¹⁶⁰ حدثت الزيارة يوم الاثنين 4 جمادى الآخر 1325 هـ/15 يوليو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 56.

¹⁶¹ كانت الزيارة يوم الثلاثاء 28 جمادى الأولى 1325 هـ/9 يوليو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص 54.

¹⁶² الشمندوفر: الشمندوفار، مصطلح فرنسي ويقصد به خطوط السكة الحديدية (القطار). انظر: الشرقي، م.س، ج 2، ص 311 (هامش 1).

¹⁶³ غرمضان، م.س، ص 39.

¹⁶⁴ المصدر نفسه، ص 41.

¹⁶⁵ غرمضان، م.س، ص 39. والصيفية أماكن ومباني مخصصة للاصطياف على الطرف الآسيوي من اسطنبول. انظر: الشرقي، م.س، ص 318 (هامش 1).

الطبية ومواجه الماء... وأشجار يابسة تخضر في الشتاء وبعضها في أوائل الاخضرار وهذا من العجائب" ¹⁶⁶ في بستان الوزير عثمان جوار دار الضيافة، فضلاً عن "الأشجار الملتفة والبرك الكبار ملائمة بالماء" ¹⁶⁷، في بستان سرايا السلطان الخاص، بجانب "الأشجار الملتفة بعضها ببعض" في منطقة أناضولي ¹⁶⁸.

- مشاهدات في جانب الثروة الحيوانية

شاهد غرمضان وبقية الوفد عدداً من "الحيوانات المختلفة الألوان" في بستان السراي الخاص بالسلطان في اسطنبول مثل الكركن والضياء والغنم "ألوان وأشكال" وجمال الحبشة البُحث التي لها سنامين والبقر الكبار التي نعتقد أنه بالغ في وصف حجمها ¹⁶⁹، فضلاً عن الخيول ¹⁷⁰.

2-1 المشاهدات العسكرية:

قدم لنا غرمضان صورة عن مشاهداته العسكرية المرتبطة بالأسلحة الحربية وأنواعها، القديمة والحديثة، البحرية والبرية، وخصوصاً سلاح المدفعية وأنواعها وأحجامها ومعامل وأماكن صناعتها وطريقة اشتغالها، وفي هذا الصدد وصف مقر الترسانة ¹⁷¹ البحرية والسفن الحربية التي شوهدت هناك إثر جولة بحرية للوفد بقوله: "صدرت الإرادة السنية بعزمنا للتفرج على ترسانة البواوير الحربية، فركبنا العربيات إلى الأسكلة" ¹⁷² ثم ركبنا في السنبوق حتى وصلنا إلى البابور المسمى المسعودية، ورأينا داخله المدافع التي تدور بلا مشقة وهي نحو الأربعين مدفع، وفي أعلاه مدفع كبير طوله نحو خمسة أذرع، مركب على دواليب إذا تحرك أدنى حركة دار إلى جميع الجوانب بسهولة حتى أن ولد الشيخ عبد الواحد ¹⁷³ الصغير حركه بيده فتحرك بلا مشقة... ثم نقلنا إلى بابور آخر يسمى الحميدي

¹⁶⁶ يستحضر غرمضان المقارنة مع بلده؛ كون سقوط الأمطار واخضرار الأشجار في اليمن صيفاً، وهذا ما يفسر تعجبه من اخضرارها في اسطنبول شتاء. انظر:

غرمضان، م.س، ص41.

¹⁶⁷ غرمضان، م.س، ص51.

¹⁶⁸ المصدر نفسه، ص52.

¹⁶⁹ وصف غرمضان الكركن(الكركدن) بأنه يشبه البقر، ووصف البقر بالكبار وتوقع أن تزن الواحدة ألف رطل لحم بعد ذبحها ووصف محلبيها بالخيار الكبرى

غرمضان، م.س، ص51.

¹⁷⁰ المصدر نفسه، ص44.

¹⁷¹ ترسانة: مشتقة من الكلمة الإيطالية، وفي التركية القديمة ترساخانه وهو موضع بناء السفن. انظر: بنحادة، العثمانيون...، م.س، ص136، 328.

¹⁷² الأسكلة: المرفأ أو الميناء والمرسى الصغير الذي ترسو عنده السفن والمراكب. انظر: الشرقي، م.س، ج2، ص223(هامش4).

¹⁷³ هو أحد أعضاء وفد أعيان اليمن المنتخبين عن قضاء إب، ورغم أنه لم يرد الإشارة عند غرمضان أو في الوثيقة العثمانية إلى وجود ابن صغير مرافق له ضمن

أسماء المرافقين والمعاونين. انظر: دعوة عدد من سادات وعلماء ومشائخ وأعيان اليمن لزيارة مدينة اسطنبول(6جمادي الأولى 1325هـ/17يونيو 1907م)،

وفيه كذلك من أنواع العجائب والمدافع الكبيرة التي مقدارها خمسة وعشرين مدفع، ثم خرجنا منه إلى السنبوق ورجعنا إلى دار الضيافة¹⁷⁴. كما دون مشاهداته لمقر السلاحخانة¹⁷⁵ وما تحتويها من أسلحة بقوله: "صدرت الإرادة السنية بعزمنا إلى سلاحخانة وهي دار كبير لا بد أن طولها من باب الحكومة حق صنعاء إلى باب القصر وعلى ثلاثة سقوف، ورأينا في كل سقف منها جميع أنواع السلاح القديم والجديد من البنادق والسيوف والفؤوس وعجائب المصنوعات القديمة والحديثة"¹⁷⁶.

وعن الطوبخانة¹⁷⁷ وما فيها من معامل وآلات وأقسام وعمال ومدفعية ومستلزماتها وكيفية اشتغالها قال: "عزمنا بالإرادة السنية إلى طوبخانة ورأينا كيف يعمل المدافع وكم حاصلاتها(إنتاجها) وكل واحد من العملة(العمال) يشتغل في الفابريقات على حدته، ودخلنا محل عمل النجارة ورأينا عجائب من سرعة العمل الذي(الذين) يعملوا(يعملون) سروج الخيل على حالهم والذي يعملوا آلات عجيل(عجل) المدافع على حالهن وغير ذلك بالسرعة بالماكينات"¹⁷⁸، كما تحدث عن مشاهدته "مدافع كثيرة"¹⁷⁹ في القلعة السلطانية جنق قلعة، وكذا أنواع المدافع في البوغاز¹⁸⁰.

- بعض الفرق والتشكيلات العسكرية(المساعدة)

شاهد غرمضان فرقة الموسيقى العسكرية السلطانية العثمانية زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقدم وصفاً لها ومهامها(المرتبطة في الاستقبال والتوديع)وأعدادها والمركب البحري الخاص بها ومحتوياته، أثناء زيارة الوفد

الأرشيف العثماني إسطنبول YPRK.NO.26/88(نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: **Osmanlı Arşiv Belgelerinde**

Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني(اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008م، ص374-383؛ غرمضان، م.س، ص21-32، 39.

¹⁷⁴ حينما زاروها يوم السبت 18 جمادي الأولى 1325هـ/29 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص45.

¹⁷⁵ **سلاح خانة**: مصطلح مكون من سلاح العربية وخانة الفارسية بمعنى البيت والدار(دار السلاح)، كان يطلق في العهدين العثماني والمملوكي للدلالة على المكان الذي تحفظ فيه الأسلحة والذخائر. انظر: حلاق؛ صباغ، م.س، ص119؛ الخطيب، م.س، ص254، 255.

¹⁷⁶ في يوم الأحد 19 جمادي الأولى 1325هـ/30 يونيو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص46.

¹⁷⁷ **طوبخانة**: توبخانة: لفظ مركب من التركية والفارسية ويعني دار المدفعية، أطلق في العهد العثماني على دار صناعة المدفعية. انظر: الخطيب، م.س، ص310.

¹⁷⁸ يوم الخميس 30 جمادي الأولى 1325هـ/19 يوليو 1907م. انظر: غرمضان، م.س، ص55.

¹⁷⁹ غرمضان، م.س، ص33.

¹⁸⁰ المصدر نفسه، ص52، 53.

للترسانة البحرية حيث قال: "وكذلك أرونا مرآة الأكزيد¹⁸¹ وتفرجنا داخله على الموسيقى التي تترنم بالمرش الحميدي وكلهم قائمين احتراماً لنا، وفي هذا البابور أربعمئة نفر مرتبين فيه دائماً، وجميع محتاجاتهم ومأكولهم مصنوع بداخله وهذا البابور بغاية الانتظام والمفروشات الأنيقة وجداراته مزخرفة إلى الغاية، وحتى أن المِطْهَار (الحَمَام) مصنوع قاعاته وسقفه من الزجاج الذي لا ينكسر في غاية النظام والإحكام، وجوانبه من المرمر الأبيض والرخام"¹⁸². وقد أشار غمضان إلى هذه الفرقة في معرض وصفه لمشاهداته لصلاة الجمعة في الجامع الحميدي بقوله: "صدرت الإرادة السنية بصلاتنا في الجامع الحميدي كما في سابق، واصطفينا بخارج الجامع كالعادة وقدامنا المشيرين والباشوات وخلفنا العساكر والموسيقى إلى أن وصل حضرة السلطان"¹⁸³.

- التحصينات والاستحكامات العسكرية

من المشاهدات التي وقف عليها غمضان، التحصينات والاستحكامات الطبيعية والبشرية لمدينة اسطنبول بقسميها الأسيوي المسمى أناضولي والأوربي المسمى الروملي، بما فيها من قلاع وجبال وثكنات عسكرية وأسلحة خاصة مع وجود قصر السلطان عبد الحميد يلدرز، وذلك خلال الزيارة التي قام بها غمضان والوفد إلى البوغاز وقدم وصفاً دقيقاً لتلك الزيارة المهمة بقوله: "صدرت الإرادة السنية بعزمنا للتفرج على البغاز فركبنا العربيات إلى مرسى البحر، ثم ركبنا البابور الصغير ومشى بنا من الجهة اليمنى المسماة أناضولي وهي من أسكدار¹⁸⁴، ورأينا في ذلك الجانب على الشط البيوت المنتظمة صغاراً وكباراً وحولها وفوقها إلى أعلى الجبل... ورأينا هناك مكاتب وقشلات¹⁸⁵ العساكر الشاهانية ورأينا مراكب وسنايق راسية هناك لأهل تلك الجهة والبيوت، وكنا نرى المدافع الكبار والصغار فوق القلاع التي بجانب البغاز موجهة نحو البحر، بحيث أن طول كل مدفع من الكبار

¹⁸¹ يقصد به غمضان اسم البابور (السفينة) الخاص بفرقة الموسيقى العسكرية، بدليل قوله في متن الرحلة وتفرجنا داخله، وفي هذا البابور، وهذا البابور، وهذا بخلاف ما ذهب إليه محققي الرحلة فالثور ذكرت أنها لم تتوصل لمعناها، ص 67 (هامش 3)؛ والحبشي ودياب لم يجدا لها معنى واعتقدا أنها محرفة من الأكسيد، ص 45 (هامش 2). ثم قارن مع غمضان، م.س، ص 45.

¹⁸² تمت المشاهدة يوم السبت 18 جمادي الأولى 1325 هـ/29 يونيو 1907 م: انظر: غمضان، م.س، ص 45.

¹⁸³ كان ذلك في 17 جمادي الأول 1325 هـ/28 يونيو 1907 م وكانت هذه هي الجمعة الرابعة من بين خمس جمع صلاها وفد أعيان اليمن في الجامع الحميدي. انظر: غمضان، م.س، ص 43.

¹⁸⁴ أسكدار: مدينة في ترقية الأسيوية (الأناضول) على البوسفور، بنيت فوق منحدر على شكل مدرجات مقابل القسطنطينية، تعد اليوم ضاحية من ضواحي إسطنبول. انظر: موستراس، م.س، ص 66.

¹⁸⁵ قشلات: جمع قشلة، لفظ محرف عن أصله التركي قيشلق. معناه: المأوى الخاص بالشفاء، أطلق في العصر العثماني على قلاع الجنود أو مراكزهم السكنية (ثكنة عسكرية). انظر: الخطيب، م.س، ص 351، 352.

يزيد على عشرين ذراع إلى أن أكملناه مدة ساعة ونصف، وانتهى البغاز وبدينا (ظهرنا) على البحر الأسود بحر سياه ورجع بنا البايور من الجهة اليسرى بروم إيلي لأجل التفرج على ما في كنار البغاز من الأبنية والبيوت والقلاع والقشلات المنتظمة غاية الانتظام، والمدافع من أعلى الجبل وأسفله وفي هذا الجانب من قشلات العساكر أكثر من الجهة الأولى كون طرفها ينتهي إلى سرايا السلطان يلدز، ورأينا هنالك سرايا الكبراء كالسر عسكر وغيره¹⁸⁶. ناهيك عن الحديث عن مشاهدته للقلعة السلطانية "شنق قلعة" قبيل وصول الوفد إلى اسطنبول وما فيها من أسلحة¹⁸⁷.

الخاتمة:

تأسيساً على ما سبق في ثنايا البحث يمكن أن ندون الخلاصات والاستنتاجات الآتية:
خلص البحث إلى تحلي كاتب الرحلة غمضان بتكوين علمي ومهني متميز، مكنه من الانفراد بتدوين مشاهداته عن اسطنبول بصورة تتسم بنوع من الدقة والوعي المميز بالمكان والزمان، ما أسهم في إعطاءنا معرفة علمية موثقة مدعمة بالمعينة المباشرة المعاصرة للحدث، وجعل من غمضان إثنوغرافياً ومؤرخاً في الوقت نفسه، كما خُصّص البحث إلى تنوع مشاهدات غمضان في اسطنبول وتغطيتها المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، والتي عكست صورة حية عن واقع اسطنبول كعاصمة فاتنة تثير لدى المشاهد الانبهار والإعجاب والغرابة، وتجعل من السفر معرفة متجددة بأفقها الواسع في الزمان والمكان.

بين البحث أن المشاهدات السياسية تركزت حول قضايا استقبال وفد أعيان اليمن وبرنامجهم في اسطنبول ومقابلة السلطان، وأنه حدث تحول في غرض قدوم الوفد إلى اسطنبول من سياسي غايته مقابلة السلطان وكبار المسؤولين العثمانيين لمناقشة أوضاع اليمن واتخاذ الحلول المناسبة، إلى سياحي توزع على زيارات مستمرة لأعضاء الوفد لجل معالم العاصمة، والبقاء في مقر الضيافة دون زيارتهم لأي مسؤول عثماني أو دعوتهم من قبل مسؤولين عثمانيين أو مقابلة السلطان لمناقشة قضية اليمن، باستثناء استقبال زيارات مفاجئة لبعض أفراد الحاشية والموظفين

¹⁸⁶ كانت زيارة البوغاز في يوم السبت 25 جمادي الأولى 1325 هـ/6 يوليو 1907 م. انظر: غمضان، م.س، ص52، 53.

¹⁸⁷ غمضان، م.س، ص33.

العثمانيين لأغراض متباينة، أسهمت في التحكم بتحركات الوفد وحرف مسار برنامجه وتأجيل موعد مقابلة السلطان إلى يوم مغادرة الوفد اسطنبول صوب اليمن وبرفقة قوة عسكرية عثمانية في ذات المركب. كما بين البحث خلو مشاهدات غرمضان السياسية من أية إشارة تدل على اعتراض الوفد أو تقدم تفسيراً له، بما يحيل على استسلام الوفد وتماهيه مع ذلك البرنامج الهامشي، ومن ثم فشل الوفد في مهمته المعلنة عند تشكيله، وتحول مقابلة السلطان إلى شكلية وداعية لدقائق معدودة اقتصرت على تلبية الطلبات الخاصة للوفد، والاكتفاء بضمان انحيازهم لوجهة النظر العثمانية ضد الإمام المتمرد على السلطنة حال عودتهم اليمن وضرورة توضيح ذلك للأهالي بحسب فحوى كلمة السلطان الذي يبدو انه أدرك أن الوفد لا يمثل القوة الحقيقية على الأرض ولا يمكنه إقناع الإمام بوقف قتاله العثمانيين في اليمن، وأنه لابد من وفد آخر يمثل الإمام في تفاوض قادم.

أظهر البحث أن المشاهدات الاجتماعية غطت نصيباً وافراً من رحلة غرمضان، بحيث شملت عدداً من قضايا المجتمع العثماني آنذاك، في مقدمتها التعدد الاثني، وحضور المرأة في الحياة اليومية للمجتمع العثماني من خلال بعض الأنشطة الحرفية والمهنية التي تتقنها، وعادات إكرام الضيف، وركزت على وصف المعالم والأماكن والمؤسسات والمراكز المرتبطة بخدمة المجتمع في النواحي التاريخية والدينية والصحية والترفيهية، ولم يفت غرمضان الإشارة إلى زمن تلك الزيارات محدداً إياها باليوم والتاريخ، ورغم ذلك لم نجد عنده وصفاً لجامع الحميدية ولا السلطان عبد الحميد رغم مشاهداته المتكررة لهما في صلاة خمس جمع وفي موعد مقابلة السلطان، فضلاً عن عدم ورود أي نص يحيل على خروج أعضاء الوفد من مقر الإقامة بغرض الضيافة لدى أي مسؤول عثماني، أو حضور أية مناسبة اجتماعية في الأفراح والأتراح، ناهيك عن غياب وصف المأكولات التي كانت تقدم لهم في مقر الضيافة طوال مدة الإقامة.

برهن البحث على تنوع مشاهدات غرمضان الاقتصادية بين تجارية وصناعية وزراعية وحيوانية، حيث تعلقت المشاهدات التجارية بحركة البيع والشراء لبعض السلع والبضائع المعروضة في الأسواق التجارية في بعض المدن العثمانية وجنسيات التجار المشتغلين بها، لكن دون الإشارة إلى الأسعار ونوع العملة، بينما ركزت المشاهدات الصناعية على وصف المعامل الصناعية(المصانع) والمصنوعات(التقليدية) التي تنتجها وطريقة اشتغال آلاتها والعمال المشتغلين فيها والمدن الصناعية التي تحتوي على تلك المصانع، بجانب وصف عدد من الصناعات الحديثة والآلات التقدم سواء فيما يتعلق بوسائل المواصلات أو الأجهزة والصناعات الطبية الحديثة وصناعة المياه

المعدنية، أما المشاهدات الزراعية والحيوانية فقد اقتصر على وصف بعض المنتجات الزراعية في مجال الفاكهة والأشجار غير المثمرة واليابسة والأزهار والمياه وعدد من الحيوانات التي شاهدها غرمضان في بستان سراي السلطان عبد الحميد.

أبرز البحث أن المشاهدات العسكرية التي دونها غرمضان في رحلته ارتبطت بوصف السلاح الحربي وأنواعه القديم والحديث البحري والبري، وركزت على سلاح المدفعية وأنواعها وأحجامها ومعامل وأماكن صناعتها وطريقة اشتغالها، علاوةً على الفرق والتشكيلات العسكرية المساعدة سيما فرقة الموسيقى العسكرية السلطانية العثمانية زمن السلطان عبد الحميد الثاني والتي قدم وصفاً لمهامها وأعدادها والمركب البحري الخاص بها ومحتوياته، وكذا التحصينات والاستحكامات الحربية الطبيعية والبشرية لمدينة اسطنبول بقسميها الآسيوي والأوروبي، بما فيها من قلاع وجبال وثكنات عسكرية وأسلحة.

- قائمة المصادر والمراجع:

أولاً الوثائق:

وثائق باللغة العثمانية(التركية)

- تقرير الهيئة التفيشية عن مقدار مصروفات وإيرادات ولاية اليمن(5رمضان1325هـ/12نوفمبر1907م)، الأرشيف العثماني إسطنبول 46/ YPRK.NO15(نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: Osmanlı Arşiv Belgelerinde Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني(اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008م، ص 294-303.
- دعوة عدد من سادات وعلماء ومشائخ وأعيان اليمن لزيارة مدينة اسطنبول(6جمادي الأولى1325هـ/17يونيو1907م)، الأرشيف العثماني إسطنبول 88/ YPRK.NO.26(نسخة منها في المركز الوطني للوثائق بصنعاء)، ضمن: Osmanlı Arşiv Belgelerinde Yemen اليمن في وثائق الأرشيف العثماني(اليمن في العهد العثماني)، ط1، المديرية العامة لدور المحفوظات/رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، استانبول، 2008م، ص 374-383؛ غرمضان، م.س، ص 21-32.

ثانياً المصادر والمراجع:

المصادر المخطوطة

- الجنداري، أحمد عبد الله، الدرر المنتقاة في سيرة المتوكل على الله وخصاله المرتقاه، دار المخطوطات، صنعاء.

المصادر المطبوعة

- الإيراني، علي بن عبد الله، سيرة الإمام محمد بن يحيى حميد الدين، الدر المنثور في سيرة الإمام المنصور، تحقيق ودراسة محمد عيسى صالحية، ج1، ط1، دار البشير، عمان، 1997م.

- الإرياني، علي بن عبد الله، الموقف اليمني من الحكم العثماني الثاني، الدر المنثور في سيرة الإمام المنصور، تحقيق ودراسة أمة الملك الثور، ط1، دار الفكر، دمشق، 2008م.
- الجرافي، عبد الله بن عبد الكريم، المقتطف من تاريخ اليمن، ط2، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1984.
- الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج1، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوخ، ط2، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1996م.
- زبارة، محمد بن أحمد، أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجر، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة، 1376هـ.
- زبارة، محمد بن أحمد، تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن حتى العصر الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، د.ت.
- زبارة، محمد بن أحمد، نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، تحقيق عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، ج1، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2010م.
- الشرقي، سعد محمد، عشر سنوات من سيرة الإمام يحيى، تقييد حوادث إنشاء وتجديد الجهاد الثاني، دراسة وتحقيق محمد عيس صالحية، ج1، ط2، ط1، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء، 2004م.
- العرشي، حسين، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1939م.
- الغساني، محمد بن عبد الوهاب، سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحقيق وتقديم عبد الرحيم بنحادة، ط1، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا، طوكيو، 2005م.
- غمضان، محمد بن حسين، رحلة أعيان اليمن إلى استنبول 1907، تحقيق عبد الله محمد الحبشي وحسني محمد ذياب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015م.
- مطهر، عبد الكريم أحمد، سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، ج1، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، دار البشير، عمان، 1998م.
- الواسعي، عبد الواسع يحيى، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة، 1346.

المراجع

- أباطة، فاروق عثمان، الحكم العثماني لليمن 1872-1918م، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.
- إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ط1، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، 2002م.
- انجرامز، هارولد، اليمن الأئمة والحكام والتورات، ترجمة نجيب باوزير، ط1، مركز البحوث والدراسات اليمنية، عدن، 2007م.
- أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، ج2، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، 1990م.
- أوغلي، عائشة عثمان، والدي السلطان عبد الحميد، ترجمة صالح سعداوي، ط1، دار البشير، عمان، 1991م.
- أوغلي، أكمل الدين إحسان (إشراف وتقديم)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، ترجمة صالح سعداوي، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1999م.
- بنحادة، عبد الرحيم، العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، ط1، اتصالات سبو، الرباط، 2008م.
- الحبشي، عبد الله محمد، الرحالة اليمنيون، رحلاتهم شرقاً وغرباً، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1989م.
- حرب، محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط1، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994م.
- حرب، محمد، مذكرات السلطان عبد الحميد، ط3، دار القلم، دمشق، 1993م.
- حلاق، حسن؛ الصباغ، عباس، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996.
- ديبش، لطفي، الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية، قراءة في نصوص الجغرافيين والمسالكين العرب إلى القرن الخامس الهجري، ط1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جامعة تونس، 2011م.
- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1990م.
- دوغان، قوتلاي، تركيا، ترجمة فاتح توركجان؛ وجدي كديك، ط1، شركة نورول للطباعة، أنقرة، 2002م.

- رمزي، محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ط1، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.
- زغروت، محمد إبراهيم، دور يهود الدونمة في إسقاط الخلافة العثمانية، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1991م.
- سالم، سيد مصطفى، تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى 1904-1948م، ط4، 1993م، دار الأمين، القاهرة.
- الشامي، فؤاد عبد الوهاب، علاقة العثمانيين بالإمام يحيى في ولاية اليمن 1322-1337هـ/1904-1918م، ط1، مركز الرائد للدراسات والبحوث، صنعاء، 2014م.
- شهاب، حسن صالح، المراكب العربية: تاريخها وأنواعها، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1987م.
- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م.
- العابدين، محمود زين، عمارة المساجد العثمانية، ط1، دار قابس، بيروت، 2006م.
- العزيز، عبد الكريم، التشكيلات المركزية العثمانية والإدارة المحلية في اليمن 1850-1918م، ط1، مطابع وزونكوغراف الصباحي، صنعاء، 2003م.
- علي، أورهان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، ط1، دار النيل، القاهرة، 2008م.
- علي، الونسي حسين، اليمن الكبرى، ج1، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1991م.
- معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأعلام، ط26، دار المشرق، بيروت، 1992م.
- المحففي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبايل اليمنية، ج1، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2002م.
- موستراس. س، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق عصام محمد الشحادات، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002م.

ثالثاً المقالات والدوريات:

- الأمير، أمة الغفور عبد الرحمن، "الوالي حسين حلمي باشا وسياسته الإصلاحية في اليمن (1316-1319-1898-1901م)، ضمن: بحوث الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني، صنعاء 16-17 ديسمبر 2009م، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا)، استانبول، 2011م، ص 43-73.
- ربح، عبد القادر، "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن 11هـ/17 من رحلة يحيى الشاوي الملياني ت 1096هـ/1685م أنموذجاً"، مجلة البحوث والدراسات، مجلد 15، العدد 1، 2018م، جامعة الجلفة، الجزائر، ص 297-324.
- الزاهدي، مليكة، "صورة الدولة العثمانية في رحلتي ابن عثمان والزياني لعام 1200هـ/1789م"، ضمن: العثمانيون والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحمن المودن- عبد الرحيم بنحادة، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003م، ص 159-173.
- الصفواني، رياض محمد أحمد، "موقف العلماء اليمنيين من الحكم العثماني الثاني في ولاية اليمن 1289-1337هـ/1872-1918م، مجلة دراسات تاريخية، مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، عدن، العدد السادس، يونيو 2021م، ص 147-183.
- الطيب، ابن، محمد، "صورة الآخر في أدب الرحلة قديماً"، ضمن: صورة الآخر في الثقافة العربية الإسلامية، إشراف توفيق بن عامر، ط1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2007م، ص 157-169.
- عامر، محمود، "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 117-118، دمشق، حزيران-كانون الثاني 2012م، ص 357-381.
- الغاشي، مصطفى، "مشاهدات مغربي في استانبول في العهد الجمهوري، الرحلة المشرقية لمحمد بن يحيى الصقلي 1928-1929م"، ضمن: شبكات التواصل في المغرب والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحيم بنحادة-عبد الرحمن المودن-محمد الزهر الغربي، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2008م، ص 141-145.
- المخلافي، طلال حمود عبده، "الملاحم العامة للمناطق الجبلية الشمالية من اليمن خلال عهدي الحكم العثماني 923-1336هـ/1517-1918م"، مجلة دراسات تاريخية، مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، عدن، العدد السادس، يونيو 2021م، ص 221-277.
- المودن، عبد الرحمن؛ بنحادة، عبد الرحيم "تقديم"، ضمن: السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحدثة، تنسيق: عبد الرحمن المودن-عبد الرحيم بنحادة، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003م، ص 4-11.

_____ مشاهدات يمني في اسطنبول أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني في ضوء رحلة أعيان اليمن لمحمد
غمضان 1325 هـ/1907م. ص ص 54- 91

الرسائل الجامعية

- عبد الودود مقشر، حركات المقاومة والمعارضة في تهامة 1918-1962م، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عدن، اليمن، 2012م.